أولويات وأسس التربية في

# وصايا لقمان لابنه من سورة لقمان

د. أحمد مصطفى نصير

## أولويات وأسس التربية في وصايا لقمان لابنه

## من سورة لقمان

تمهيد:

روى البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس قال: أُنزلت سورة لقمان في مكة، وللسورة اسم واحد وهي سورة لقمان، هكذا عُرفت بوصايا لقمان الحكيم لابنه وهو يعِظه، فذلك هو محور السورة الرئيسي، فمقدمة السورة تحدَّثت عن التربية على كتاب الله الحكيم، لما فيه هدى ورحمة للمحسنين، ولتحقيق هذه التربية لابد من أساس تمهيدي يتمثل في تنقية مصادر التربية من كل ما يَشغل النشء من لهوٍ وفِتنٍ تُضل عن سبيله، وهو ما يعني تجنيب أئمة الضلال وتجنُّب مضلات الفتن، فلا يمكن تربية النشء على الحكمة وقلوبهم مشغولة باللهو، فإذا عرفنا ذلك تلاه وجوبُ معرفة الله تعالى من خلال عبادة التفكر في الكون، فهي أساس عظيم للتعرف على خالقه، وهنا تحدَّى الله المستكبرين الظالمين، {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} [لقمان: 11]، فكلما ازاد المرء تفكرًا في خلق ربه استصغَر نفسه، وعجز عن تحدي خالقه، ومن ثم يتخلص من حالة الاستكبار التي حالت بينه وبين الهدى.

ثم انتقلت السورة لسرد مفصل لوصايا لقمان الحكيم لابنه؛ حيث أوصاه بالإخلاص وحسن المعاملة مع الوالدين وصحبتهما، حتى وهما على حال الشرك، وفي ذات الوقت نهت الآيات عن طاعتهما في معصية الله، ثم حكى له عن لطف الله وخبرته، ليتعلم معنى المراقبة، ثم أوصاه بالصلاة، فمن علم أن الله رقيبه زادت صلته به، وأتبعه بأن أوصاه بالتزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ذلك أن الصلاة تدل على الصلاح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدلان على الإصلاح،

والله تعالى استثنى المصلحين من أن يتقدَّمهم عذاب في الدنيا ولم يستثن الصالحين، ثم أوصاه بالصبر، فما من أحدٍ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، إلا وقد ابتُلي؛ فشرع الله له الصبر سببًا للنجاة وسلوانًا للألم، ثم نهاه عن التكبر على الناس والفخر والخُيلاء، وأمره بالقصد في المشي كنايةً عن الوقار وعدم التعالي على الناس، كما أمره بخفض الصوت كناية التواضع، وتحقيق التذلل للمؤمنين.

وبعد هذا العرض لتلك الوصايا، انتقلت السورة لبيان أن من تربَّى على الأخلاق والحكمة، وتأسس على العقيدة السليمة من خلال عبادتي التدبر في كتاب الله والتفكر في آلائه – حري بأن يتأهل لمفهوم الاستخلاف في الأرض الذي أسبغ الله نعمه فيه على الخلق، وحين يتأهل لذلك لابد أن يتخلى عن المجادلة بالباطل، والتعصب الأعمى، والتقليد المذموم، فإن استطاع أن يستسلم لله، ويستمسك بالعروة الوثقى بإحسان الصلة به تعالى، فقد استحق أن يتحمل عبء الدعوة في سبيل الله تعالى.

وهنا تجد أن السورة تتحدث عن الخُطوات العملية للدعوة والتدرج بالناس من الكفر إلى الإيمان بأسلوب سلس، تتجاوز من خلاله حالة الكفر التي يتلبسون بها؛ حيث يتحقق في الدعاة إلى الله الاتزان النفسي الذي يحملهم على عدم الحزن على كفرهم؛ لأن الحزن يقلل عزمهم على المضي في دعوتهم لهم، وليبدأ دعوته من النقطة التي يتفقون معهم فيها على شيء، ألا وهي إقرارهم بخلق الله لهذا الكون، وذلك من الحكمة في الدعوة، فإن أقرُّوا بذلك فعليه أن يستمر في عرض الدعوة عليهم بضرب الكثير من الأمثلة الدالة على قدرته سبحانه، وليمثل لهم وليصور لهم هذه القدرةَ بشيء ملموس في تصوُّرهم، حتى يقرِّب لهم ما غاب عنهم، وليتعرفوا على القدرة المطلقة في

حق الإله، فإن آمنوا بتلك القدرة، سهُل عليه أن يسوق لهم أن الله قادرٌ على أن يبعث كل الخلق مرة واحدة كما خلَقهم، وأن ذلك على الله يسير.

فإذا اكتملت أركان توحيد الربوبية في قلوب العباد، بقي أن يرسخ فيها توحيد الألوهية؛ حيث يتوجهون إلى الله بالدعاء مخلصين له الدين لا يشركون في عبادتهم له بغيره، ويكون ذلك من خلال مشاهدة نِعمه والتجربة في أحوال الاضطرار والابتلاء؛ لأن من الناس من ينسى الله في الرخاء، ولكن يعرفه في الشدة، فيكون الابتلاء له منحة من الله؛ ليتعرف عليه ويخلص له، لكن إذا عاد لشركه فذلك هو الغادر الكفور.

وتختتم السورة بالأمر بتقوى الله، والإخبار بتفريد المسؤولية بين الوالد وولده، فكلما استشعر المرء أنه سوف يُسأل وحده، ويحاسب وحده، عظُم عليه الأمر وزاد – عنده – تفويض أمره لله مدبِّر الأمر، فالله وحده علام الغيوب، وهو وحده الذي عنده مفاتح الغيب الخمسة التي عليها يدور كلام الناس: (نهاية العالم – ومقدار الرزق ومكان نزوله – مستقبل كل مولود شقي أم سعيد – مرورًا بأحداث عمره – وأحواله حتى مكان موته).

# فاتحة سورة لقمان

(التربية على آيات الله الحكيمة لما فيها هدى ورحمة للمحسنين)

قال تعالى: {الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [لقمان: 1 - 5].

فمثلما قسمت بداية سورة البقرة الناس لأصناف، وبعدما ذكرت أوصاف المتقين وغيرهم من الكافر والمنافقين، ثم أوردت - بعد ذلك - أية إعجازية لتحدي الكافرين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، فكذلك فعلت سورة لقمان؛ حيث ابتدأت بذكر صفات المحسنين، ثم شرعت في بيان أصناف بعض الناس الذين جاءت صفاتهم على خلاف صفات المؤمنين، وذكرت منهم على وجه الخصوص الضالون المضلون، كما تحدت -كذلك - الناس أن يأتي بخلق يضاهي ما خلق الله إعجازًا لهم.

قوله: {الم}: حروف مقطعة تقرأ: (ألف لام ميم) مد حرفي مثقل، والسور التي ابتدأت بهذه الحروف هي (البقرة، آل عمران، الروم، العنكبوت، لقمان، السجدة)، وكلما قرأت هذه الحروف المقطعة في تلك السور، استشعرت بآيات الله المعروضة وآثارها الواضحة في الكون.

قوله: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}: الإشارة إلى كتاب الله تعالى ووصفه بالحكمة، وبيان وظيفته بأنه هدى ورحمة، وتحديد المستفيد بتلك الهداية والرحمة بأنه يتصف بالإحسان، كل ذلك يتماشى مع محور السورة الرئيسي الذي يُعنى بتربية الأبناء؛ حيث وصايا لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه، فإذا لقبُ لقمان بأنه حكيم؛ كما في قوله (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)، وقد وُصف الكتاب

هنا بأنه حكيم؛ لِما تضمَّن من المعاني الزاخرة والأخلاق النبيلة والمبادئ الفاضلة، والأحكام العادلة والأوصاف الدقيقة، والقصص الحسن والعبر والدروس المستفادة، والحكاية عن عوالم كثيرة، وأخبار عن أمم ماضية، وتنبُّؤات عما سيحصل .... فلا تنتهي عجائبه، ما يعني أن كتاب الله كان هو الأساس التربوي للقمان وهو يعظ ابنه، بذلك يستبين مدى ترابط المقدمة مع محاور السورة الرئيسية.

فإذا أراد كل أب أن يربي ابنه على الحكمة، فعليه أن يبدأ بكتاب الله سبحانه، لا بقصد دراسة الكتاب ذاته، فيشرع في شرح أحكامه وفقهه وعلومه، بل لكي يتعلم الإيمان منه أولًا؛ كما ورد في حديث جُنْدُبٍ قَالَ: كُنَّا غِلْمَانًا حَزَاوِرَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَتَعَلَّمْنَا الإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الإِيمَانِ)[1]، فيستحب تربيتهم على الاهتمام بهذا الكتاب منذ أول عهد لهم بالدنيا، وقبل أن يبدؤوا بالكلام، فينشؤون على حبه وسماع تلاوته،فإذا ما بدؤوا بالكلام لهجت ألسنتهم بآيات منه، فمن فاته تحصيل شيء من الحكمة، فعليه أن يتدارك ذلك مع أبنائه، وليبدأ مبكرًا منذ نعومة أظافرهم.

والعكس كذلك – وللأسف- صحيح، ولذلك قال ابن القيم: "وكم ممن أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله، وترك تأديبه، وإعانته على شهواته، وهو بذلك يزعم أنه يُكرمه وقد

---

1) رواه البيهقي في سننه الكبرى ج3 ص 120 رقم 5498، وفي رواية ابن ماجه (كنا فتياناً حزاورة) ج1 ص 70 رقم 60، وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج1 ص 16 رقم 52؛ قال ابن قتيبة (حزور: إذا قارب أن يبلغ)، غريب الحديث ج3 ص 758.

أهانه، ويرحمه وقد ظلَمه، ففاته انتفاعه بولده، وفوَّت على ولده حظه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء" [1].

فيُستحب أن يتدارك الآباء هذه المسألة مبكرًا، فينتبهوا إلى تربية أبنائهم على كتاب الله منذ الصغر، فالطفل ينشأ على ما عوَّده عليه أبواه، فإذا أرادا الأبوان تربية أبنائهما على الحكمة والمعاني والأخلاق الفاضلة، فكتاب الله كفيل بتحقيق ذلك.

قوله: (هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ) (2-3): قد سبقت الإشارة إلى كتاب الله في مقدمة سورة البقرة، وتبعها ذكر وظيفة الكتاب بأنه هدى للمتقين؛ قال الشعراوي: (وفَرْق بين المعنيين، فالتقوى تقتضي الإيمانَ، ومطلوبُ الإيمان الافتراض؛ يعني أنْ تؤدي ما فرَضه الله عليك، أما مطلوبُ الإحسان ففوقَ ذلك، فالإحسانُ في الأداء أن تُحسن في كَمِّه، وأن تُحسن في كيفه)[2].

فإذا كان التعليم في الصغر كالنقش على الحجر؛ حيث يهتدي الطفل بما تعلَّمه منذ الصغر عندما يَكبُر، فيكون ما تعلمه في صغره قائدًا له ودليلًا، فإن كتاب الله فيه كل وسائل الهدى التي يهتدي بها الأبناء عندما يكبرون، وإذا كانت الرحمة هي عنوان الشخصية التي يتربى عليها النشئ المسلم، فإن كتاب الله يضع الرحمة في القلب ويرقِّقه، فيلين جانب المسلم مع الناس، وتنعكس هذه الرحمة في معاملاته معهم، فيصير محسنًا لهم بعد أن تأدَّب وأحسَن مع ربه.

ولَمَّا كانت تربية الأبناء تحتاج سنوات طويلة قد تصل إلى عشرين سنة، وتختلف حسب المراحل العمرية والطبيعة البيولوجية والظروف البيئية، والحالة الصحية والمزاجية، ويعتريها كثير من

---

1 ) تحفة المودود بأحكام المولود ج1 ص 242.

2 ) تفسير الشعراوي، ج1 ص 7231.

الصعوبات المادية والأزمات المالية، والمواقف النفسية والخبرة، والمحاكاة الاجتماعية، فضلًا عن التثقيف والتعليم والتريض.. إلخ، فإنه يمكن بالجملة وصف العمل على تربية الأبناء بأنه عملٌ دقيق غاية في الدقة، ومن ثم فإن القائم عليه لابد أن يكون محسنًا، ولا بديل عن ذلك، وحتى يقدِر على ذلك لابد أن يتحلى المربي نفسه بما يريد أن يربي ابنه عليه، ففاقد الشيء يتعذر أن يعطيه، والتربية بالقدوة أقومُ وأنجع من التربية بالمواعظ والكلمات، فالتربية مواقف، ومن يتصف بالإحسان تجده في كل موقف محسنًا.

وجمعًا بين المعنيين (التقوى) و(الإحسان)، قال الإمام البقاعي تعريفًا للمحسنين: (وهم الذين لزِموا التقوى فأدَّتهم إلى الإحسان، وهو عبادته تعالى على المكاشفة والمراقبة، فهي له أو هو لها آخر)[1].

قال السيوطي في مناسبة قوله: (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) في البقرة، وقوله: (هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ) في لقمان: لأنه لما ذكر هنا مجموع الإيمان ناسَب المتقين، ولَما ذكر ثَمَّ الرحمةَ ناسَب المحسنين)[2].

وقال الدكتور فاضل السامرائي: (في سورة البقرة جاء فيها (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)، وفي لقمان (هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)، زاد تعالى في سورة لقمان "الرحمة"، واختلف بيت المتقين والمحسنين، المتقي: هو الذي يحفظ نفسه، فمتقي النار هو الذي يحمي نفسه منها، أما المحسن فيُحسن إلى نفسه وإلى الآخرين؛ كما جاء في قوله تعالى: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [القصص: 77]، و{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [البقرة: 83]، فالإحسان فيه جانب شخصي وجانب للآخرين؛ إذًا

---

1 ) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج 6 ص5.

2 ) الإتقان في علوم القرآن ج2 ص 305.

هناك فرق بين المتقي والمحسن، والإيمان أعمُّ من الإحسان، ولا يمكن للإنسان أن يكون متقيًا حتى يكون مؤمنًا، ثم إن الإحسان إلى الآخرين من الرحمة، فزاد تعالى في سورة لقمان الرحمة للمحسنين، فكما أن المحسن أحسَن للآخرين ورحِمهم، فقد زاد الله تعالى له الرحمة، فقال (هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)، فالمحسن إذًا زاد على المتقي، فزاد الله تعالى له الرحمة والإحسان من الرحمة، فزاد الله تعالى له الرحمة في الدنيا (هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)، وفي الآخرة أيضًا {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: 26]، فكما زاد المحسنون في الدنيا، زاد الله تعالى لهم الرحمة في الدنيا والآخرة، والجزاء من جنس العمل، ولهذا اقتضى في آية سورة لقمان أن يقول تعالى: (هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)، ولو قال تعالى: "هدى للمحسنين"، لبخس حقَّ المحسنين، وكما نعلم فإن المحسن يَفْضُل المتقي، والإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1].

قوله: (الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)، فالجيل المؤمن من الصحابة رباهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم صغار على إقامة الصلاة، فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ)[2]، وفي رواية البزار: (علموا أولادكم الصلاة إذا بلغوا سبعًا، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشرًا، وفرِّقوا بينهم في المضاجع)[3].

---

1 ) لمسات بيانية ج1 ص 862، وقال (وورود كلمة "المتقين"، "المؤمنين"، "المحسنين" و"المسلمين"، يعود إلى سياق الآيات في كل سورة.

2 ) رواه أبو داود ج2 ص 88 رقم 418 وصححه الألباني: صحيح أبي داود ج2 ص 401

3 ) الجامع الصغير ج1 ص 748 رقم 7473؛ أخرجه البزار (9823)، واللفظ له.

فإذا ما تربَّوا على الإيمان ظهر أثر ذلك عمليًّا بأن تجدهم يَملؤون المساجد وهم صبية، فيقيمون الصلاة، فإذا ظلوا على ذلك الحال تجدهم وقد بلغوا سن الشباب يعملون على أداء فريضة الزكاة، بهذا يظهر أثر التقوى بالتدرب على الصلاة وهم صغار، وأثر الإحسان للناس بمساعدة المحتاجين، أو جمع الأموال من الأغنياء، والتحري عن الفقراء وتسليمها لهم، فإذا بلغوا سنَّ الكهولة والضعف تجدهم وقد زاد إقبالهم على طلب الآخرة يقينًا بها وزهدًا فيما عند الناس، وهكذا تُثمر التربية في الصغر حتى تؤتي ثمارها في الكبر، فمن أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه.

قوله: (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)، ونظيرها بتمامها في سورة البقرة كذلك، والإشارة تأكيد على حصول الهدى لهم، وكذلك الفلاح، فالهدى يتحقق بالتقوى، والفلاح يزيد بالإحسان.

والارتباط بين تعلُّم الحكمة أي (الإيمان) من القرآن والاهتداء به، والتماس الرحمة منه، وقصْر ذلك على المحسنين، والإشارة بأن الفلاح حاصل من ذلك، يعني أن العبرة لا تكون إلا بإحسان تدبُّر ما في كتاب الله تعالى؛ حتى يحصل ذلك الهدى والفلاح منه، وهذا هو ما فهِمه صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، فعن ابن مسعود قال: (أُنزل القرآن ليُعمَل به، فاتَّخذتم دراسته عملًا، وسيأتي قوم يثقفونه تثقيف الغناء؛ ليسوا بخياركم)[1]، وفي لفظ آخر: (يُقيمونه إقامة القدح، يتعجَّلونه ولا يتأجلونه).

وعن ابن عمر: (لقد عِشنا بُرهة من دهرنا وإن أحدُنا يُؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة، فيتعلم حلالَها وحرامها وآمرَها وزاجرها، وما ينبغي أن يتوقف عنده منها كما تتعلمون أنتم اليوم

1 ) إحياء علوم الدين ج1 ص 125، وذكره ابن القيم عن بعض السلف في كتابه الجواب الكافي ج1 ص 108.

القرآن، ولقد رأيت رجالًا يُؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده ويَنثُره نثرَ الدَّقَل).

وفي خبر (كنا أصحاب رسول الله أوتينا الإيمان قبل القرآن، وسيأتي بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان، يُقيمون حروفه ويُضيعون حدوده، ويقولون قرأنا فمَن أَقرأُ منَّا، وعلِمنا فمَن أعلمُ منا، فذلك حظُّهم منه).

# المحور الأول:

## الأساس التمهيدي للتربية (تنقية مصادر التلقي) بتجنيب آئمة الضلال، وتجنب مضلات الفتن:

قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [لقمان: 6 - 9].

فأولُ أُسس التربية الإسلامية التحذير من الأئمة المضلين؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (وإن من أخوف ما أخاف على أمتي الأئمةَ المضلين)[1]، وعن أَبِي ذَرٍّ يَقُولُ: (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ شَيْءٍ أَخْوَفُ عَلَى أُمَّتِكَ مِنْ الدَّجَّالِ؟) قَالَ: (الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ)[2]، قال المناوي: (كان صلى الله عليه وسلم حريصًا على إصلاح أمته، راغبًا في دوام خيِّريتها، فخاف عليهم فساد الأئمة؛ لأن بفسادهم يَفسُد النظام، لكونهم قادة الأنام، فإذا فسدوا فسدت الرعية، وكذا العلماء إذا فسدوا فسد الجمهور؛ من حيث إنهم مصابيح الظلام)[3].

---

1 ) رواه ابن حبان في صحيحه ج15 ص 110، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة المجلدات ج4 ص 156 رقم 1582، قال الألباني في "السلسلة الصحيحة " 4 / 109: ورد من حديث عمر بن الخطاب وأبي الدرداء وأبي ذر الغفاري وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشداد بن أوس وعلي بن أبي طالب.

2 ) رواه أحمد ج43 ص 301 رقم 20335، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة المجلدات الكاملة ج4 ص 156.

3 ) فيض القدير ج2 ص 531.

وقيل: (هذا هو الذي يخشاه النبي على الأمة، وهو كونها تُبتلى بمن يضل، سواء كانوا هؤلاء الأئمة أئمةَ دعوة وتبليغ وإرشاد، أو أصحاب سلطة، والإمامة تكون بكونه متبوعًا وغيره يتبعه وإن لم يكن واليًا، وقد يكون واليًا ويكون مع إضلاله قوة تُساند وتؤيد هذا الضلال، وتحتضن من يكون من أهل الضلال، فقال صلى الله عليه وسلم: (وإنما أخشى على أمتي الأئمة المضلين)؛ لأنهم يحرّفونهم ويَصرفونهم عن الحق والهدى، بأن يُضلوهم ويُخرجوهم من الجادة والاستقامة إلى الطرق المنحرفة الخارجة عن الصراط المستقيم)[1].

وعلةُ تخويف أُمته من الأئمة المضلين أشدَّ من تخويفهم من الدجال – أن الدجال علاماته معروفة، بينما الأئمة المضلين، فلأنهم أئمة فقد يلتبس على الناس، فلا يُعرفون بضلالهم ويشتهرون بصلاحهم، كما أن لذلك علة أخرى ذكرها ابن العربي فقال: (هذا لا ينافي خبر: (لا فتنة أعظم من فتنة الدجال)؛ لأن قوله هنا: ( غير الدجال ... إلخ)، إنما قاله لأصحابه؛ لأن الذي خافه عليهم أقربُ إليهم من الدجال، فالقريب المتيقن وقوعه لمن يُخاف عليه، يشتد الخوف منه من البعيد المظنون وقوعه، ولو كان أشدَّ"[2].

وفي الأخير فإن الفتنة معروضة على كلا الفريقين، المؤمن والكافر، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا

1 ) شرح سنن أبي داود لعبد المحسن العباد ج23 ص 476

2 ) فيض القدير 535/4.

يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ)[1]، فالمستكبر يسقط في الفتنة معرضًا عن الحق، بينما المؤمن يقاوم الفتنة، فإن مسته فإنه يكفِّر عنها بعمل الصالحات.

قوله: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)، وفي المقابل نجد أن بعض الناس مَن لا يهتم بالكتاب، ويروِّج اللهو للناس، فيُضلهم عن الآخرة، وأشد الناس إثمًا في هذا الأمر هم الآباء الذين يضلون الأبناء؛ حيث تجد الآباء وقد التَهتَ قلوبهم باللهو من الحديث عن غير علمٍ، فضلوا عن طلب الآخرة، واتخذوا اللهو وسيلة لإضلال أبنائهم عن سبيل الله، بل إنهم ليشترون بأموالهم أشياء وأدوات ووسائل ليُلهو أبناءهم بها، فتَضلهم عن الصراط؛ مثل الموبايل في سن صغير دون رقابة أبوية، وألعاب الفيديو جيم دون تمحيص المحتوى الذي تتضمنه... إلخ[2]، والأب في هذا المثال لا يدري ولا يعلم كيف يُضر ابنه، وهو يظن أنه يُسليه ويُسعده، ولذلك قال ابن تيمية: (كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتَنه هواه، وصاحب دنيا أعمَته دنياه، وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فِتنتهما فتنة لكلِّ مفتون، فهذا يُشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يتَّبعونه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم)[3].

---

1 ) رواه مسلم ج1 ص 349 رقم 207.

2 ) فهناك ألعاب فيديو تسمى بلعبة الولد الشقي الذي يجري في الشارع يكسر المحلات ويجري؛ حتى لا يقبض عليه المارة، ويعاكس الفتيات في الطرق ويتحرَّش بهن، وهكذا فكرة اللعبة هي أن يقتنع الطفل أنه يستطيع أن يفعل كل شيء محرم شرعًا، أو مجرَّم قانونًا طالَما لديه القدرة والطاقة لفعل ذلك، والذكاء والدهاء والسرعة لتجنب القبض عليه.

3 ) اقتضاء الصراط ج1 ص 25.

فمحل جريمة التلهي والإلهاء أمرين: أولًا عدم الاحتراز في جلب أو شراء المادة الترفيهية، والنظر إلى محتواها ومضمونها، وما إذا كان مفيدًا أم ضارًّا، والثاني: عدم إمكان التحقق من مصدر المعلومة، وما إذا كانت معلومة صحيحة أم مزيفة، ولا سيما إن خالطها الفكاهة والضحك، وعندئذ تدخل في القلب مباشرة، ويتشبع منها، ويقتنع العقل بها؛ لأنها أُدخلت عليه في لحظات سروره وسعادته، فيحصل التسليم بها، ويسهل إضلال العقل وإقناعه بالخطأ، فقد أُجريت تجربة على البقر كان يرفض أن يأكل العشب الجاف، فألبسوه نظارة فيديو مصور لبقر يأكل في مرعي به أعشاب خضراء، فأكل البقر التبن والعشب الجاف، وظن أنه يعيش هذه اللحظة، ويتمتع بالأخضر من الأعشاب، وهكذا يتحقق التضليل للعقل عن طريق الخداع البصري والإيهام.

ولا شك أن كثيرًا من وسائل الإعلام تُضلل الناس بهذه الطريقة، ولا سيما من خلال الإعلانات التجارية للسلع، وكذلك المسلسلات التي تبث بعض المفاهيم الخاطئة بطريقة الإيحاء النفسي، وتجسيد المبررات لارتكاب بعض الأفعال التي هي في الدين محرَّمة، كتبرير الزنا لوقوع الفتاة في الحب، وهكذا يضحى أمرُ تعارف الشاب على الفتاة بعيدًا عن الأسرة ودون مشروع خطوبة، أمرًا متعارفًا عليه عند كثير من الناس؛ لأن هذه المعلومة ظلت تروَّج زمنًا بالتدريج حتى أضحى الاختلاط شيئًا مسلمًا به وعاديًّا، بل أضحى جزءًا من عاداتنا وحياتنا اليومية.

كذلك الكوميديا الساخرة من أم الزوج، وتدخُّلاتها في الحياة، وتصويرها على أنها تريد أن تفسد العلاقة الزوجية لابنها مع زوجته، فهذا خلاف الأصل، وأنها إنسانة فاضلة وتباشر دور أساسي في تثقيف زوجة ابنها بما ينقصها من خبرة الحياة، فتستكمل ما تربَّت عليه من أخلاق فاضلة في بيت أبويها ... وهكذا تنقلب حقائق الأشياء بتلك الفكاهة، حتى اقتنع الناس اليوم

بذلك، وأضحت نظرة كل امرأة مُقبلة على الزواج إلى أم زوجها أو خطيبها، نظرةَ تشكُّك وخوف وترقُّب، وليس ذلك هو الأصل في المجتمع الإسلامي الأصيل، والأمثلة على ذلك كثيرة، ناهيك عن السخرية من الحجاب والنقاب واللحية والصلاة في العمل ... وترهيب الناس من العقوبات والحدود الإسلامية... إلخ.

فالمادة العلمية المدخلة بتلك الطريقة غير صحيحة، إذا كانت غير المدققة، ولم يتم التحقق من مصدرها، ولم تُراجع وتُمحَّص جيدًا، فإذا كانت كذلك فهي في حقيقتها محضُ كذب، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كفى بالمرء إثمًا أن يحدِّث بكل ما يسمع)[1]، قال العلماء في الشرح: (يعني لو لم يكن للرجل إثمٌ إلا تحدُّثه بكل ما يسمعه من غير بيِّنة أنه صدق أم كذب، يَكفيه من الإثم؛ لأنه إذا تحدث بكل ما يسمعه لم يَخلُص من الكذب؛ إذ جميع ما يسمع ليس بصدق، بل بعضه كذب، فعليه أن يبحث ولا يتحدث إلا بما ظنَّ صدقه، فإن ظنَّ كذبَه حَرُمَ، وإن شك وقد أسنده لقائله وبيَّن حاله، برئ من عهدته، وإلا امتنع أيضًا، ومحل ذلك ما إذا لم يترتَّب عليه لحوقُ ضرر، وإلا حَرُمَ وإن كان صدقًا، بل إن تعيَّن الكذب طريقًا لدفع ذلك وجَب)[2].

والأب بالنسبة لابنه هو الشيخ وهو المدرس، وهو العالم وهو القدوة؛ لأنه يجمع في نظره بين صفة العالم والعابد، فالابن يظن أن أبيه يعلم كل شيء؛ لأنه عندما يسأله عن شيء يجيبه، ويعلِّمه كل شيء، كما يظن في أبيه أنه القدوة والمثال الذي يُحتذى به؛ لأن قد أمضى سنوات يؤدِّبه

---

1 ) رواه أبو داود ج13 ص 174 رقم 4340 وصححه الألباني: صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 43

2 ) المناوي: فيض القدير ج4 ص 721

ويهذّبه، فاتَّخذه قدوةً، من هنا تبدو خطورة تعليم الآباء للأبناء دون أن يكون الأب مؤهلًا لذلك، ولذلك حذَّر السلف من عالم فاسدٍ وعابد ضال، فقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: كَانُوا يَقُولُونَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ الْعُلَمَاءِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ الْعُبَّادِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ النَّصَارَى، وَكَانَ السَّلَفُ يَقُولُونَ: احْذَرُوا فِتْنَةَ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ، وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ؛ فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ)[1].

من هنا تجد من الآباء الضالين مَن يؤثرون سلبًا على أبنائهم، فيضلونهم عن سبيل الله، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن تأثير التربية السيئة للآباء على الأبناء، فقال صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، ثُمَّ يَقُولُ: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [الروم: 30][2]، ثم تجد الأبناء بالتبعية يسيرون خلف آبائهم بدون علمٍ؛ كما قال الله: {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (69) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} [الصافات: 69، 70]، فيَعزفون مثلهم عن كتاب الله، وينشغلون بلهو الحديث كما عوَّده أبواه.

والإضلال عن سبيل الله حاصل بمجرد إشغال الفكر عن غيره، فيضيع الوقت ويتشتَّت الهم، ولابد لإصلاح ذلك من إشغال الأوقات بالواجبات، ولا سيما أن الواجبات أكثر من الأوقات، ولذلك يقول ابن القيم: (لابد من الفكرة في واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهم كله عليه، فالعارف ابن وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحُه كلها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، فمتى أضاع الوقت لم يَستدركه أبدًا، قال الشافعي رضى الله عنه: صحبت الصوفية فلم أستفد منهم

---

1 ) الفتاوى الكبرى ج2 ص 142

2 ) رواه البخاري ج14 ص 447 رقم 4402

سوى حرفين، أحدهما: قولهم الوقت سيف، فإن لم تقطَعه قطعك، وذكر الكلمة الأخرى وهي: ونفسك إن أشغلتها بالحق، وإلا اشتغلتك بالباطل، فوقتُ الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياة الأبدية في النعيم المقيم، ومادة المعيشة الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر أسرع من مرِّ السحاب، فما كان من وقته لله وبالله، فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا من حياته وإن عاش فيه عيشُ البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والشهوة والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه بالنوم والبطالة، فموت هذا خيرٌ له من حياته، وإذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له من صلاته إلا ما عقَل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله)[1].

والآباء وغيرهم من المتبوعين الذي يقعون في هذا الجرم وللأسف، لا يفعلون ذلك بغير قصد، بل عن عمدٍ، وهذا العمد مبناه الجهل، فالجهل في ذاته إثم؛ لأن الذي يجهل الحق ينبغي عليه أن يبحث عنه، فإذا عرف الحق التزمه واتَّبعه، لا أن يعاند ويعارض ويستهزئ، ولذلك فإن الذي يفعل ذلك فهو مستكبر، فالجهل والكبر قرينان؛ كما في قوله: {بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا} [لقمان: 6]، وقوله: {وَلَّى مُسْتَكْبِرًا} [لقمان: 7]، فهاتان الصفتان يُوصِفان بدقة حالة من يستهزئ بما ينفعه من العلم، ويتلهى بما لا نفع فيه.

فأثرُ الإضلال ليس فحسب الانشغال بالملهيات، فذلك هو أولُ المفسدة، ولكن أسوأ ما فيه أنه يَطبع القلب بعد الاهتمام بالملهيات وعدم الاهتمام بالذكر، وتعظيم الملهيات وعدم تعظيم شعائر الله – أنه يَطبعه على الاستهزاء بالإسلام وطريقة المسلمين جملةً وتفصيلًا؛ كما في قوله: {وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا} [لقمان: 6]، قال مقاتل بن سليمان (يقول: ويتخذ آيات القرآن استهزاءً به؛

---

1 ) الجواب الكافي ج1 ص 109

مثل حديث رستم وأسفندباز، وهو الذي قال: ما هذا القرآن إلا أساطير الأولين، وذلك أن النضر بن الحارث قدم إلى الحيرة تاجرًا، فوجد حديث رستم وأسفندباز (اسفنديار)[1]، فاشتراه، ثم أتى به أهل مكة، فقال: محمد يحدثكم عن عاد وثمود، وإنما هو مثل حديث رستم وأسفندباز)[2].

قال الفراء: (نزلت في النضْر بن الحارث الداريّ، وكان يشتري كتب الأعاجم فارسَ والروم، وكتب أهل الحِيرة، (ويحدِّث) بها أهل مكة؛ وإذا سمع القرآن أعرض عنه واستهزأ به)[3]، لكن العبرة ليس بخصوص السبب، فالآية عامة في كل ضال مستهزئ، {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ} [لقمان: 6]، يشتريه بماله ويشتريه بوقته، ويشتريه بحياته، يبذل تلك الأثمان الغالية في لهوٍ رخيص، يُفني فيه عمره المحدود الذي لا يعاد ولا يعود، يشتري هذا اللهو {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا} [لقمان: 6]، فهو جاهل محجوب، لا يتصرف عن علم، ولا يرمي عن حكمة، وهو سيِّئ النية والغاية، يريد ليضل عن سبيل الله، يضل نفسه ويضل غيره بهذا اللهو الذي ينفق فيه الحياة، وهو سيِّئ الأدب يتَّخذ سبيل الله هزوًا، ويسخر من المنهج الذي رسَمه الله للحياة وللناس).

وقصص رستم وإسفنديار أشبه اليوم بقصص ألف ليلة وليلة ... إلخ، فأشد ما نجده في زماننا من لهو الحديث الملهيات من المسلسلات والأفلام وألعاب الفيديو جيم، وبرامج التوك شو...إلخ،

---

1 ) تتحدَّث هذه الحكاية عن اثنَين من أبطال الحماسة الفارسيَّة وهما رُستَم وإسفنديار، وقد عُرِفا بخَوض كثيرٍ من الحروب المصيريَّة والخطيرة دفاعًا عن استقلال إيران، وللحفاظ على عرش ملوكها، لكنهما تصادما في أواخر حياتَيْهما، وانتهى الأمر بمقتل إسفنديار على يد رُستَم بعد سلسلة من الحوادث الدراميَّة.2024/04/20.

2 ) تفسير مقاتل ج3 ص 53.

3 ) معاني القرآن للفراء ج4 ص 10.

حتى انصرف الناس عن كتاب الله، بدلًا من استثمار الأوقات في دراسة القرآن وفَهْمه وتعلُّمه وتعليمه، وأضحى الانشغال بوسائل التواصل الإلكتروني يشغل الناس عن زيارة بعضهم بعضًا، وتودُّد بعضهم إلى بعض، وأضحى الآباء يشغلون أبناءهم بتلك الملهيات؛ حتى لا ينشغلون بمشاكلهم وتلبية حاجاتهم للحديث معهم، وممارسة دورهم الحقيقي بوصفهم آباءً، وتعليم أبنائهم وتربيتهم على الإسلام وأخلاقه الفاضلة وآدابه الحسنة.

حتى إن الأعمال الصالحة كممارسة الرياضة قد تنقلب إلى ملهيات إذا انقلب الغرض منها من مجرَّد التريض والتقوي على عبادة الله إلى التحدي والمراهنة على الفوز والانشغال بالبطولات، فيضحى لها شغلٌ يَشغل عما هو أهم وأَولى، ويعطِّل عنه[1].

قوله: {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [لقمان: 6]، لم يذكر العذاب المهين في القرآن في أي مرة إلا وجاء قبله ذكر جريمة الاستهزاء بآيات الله؛ ليكون الجزاء متناسبًا مع الجريمة من حيث النوع كذلك؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً)[2].

---

1 ) ربيت ابني على السباحة ثلاثة أعوام حتى أضحى سباحًا ماهرًا في فريق النادي، فلما جاء موعد البطولة فوجِئت أنها تزامنت مع موعد امتحان نهاية العام للشهادة الإعدادية، فسألت كيف ذلك، فأجابوا نستخرج لك شهادة بموعد البطولة لتقدمها للإدارة التعليمية ليحتفظ بدرجاته في الدور الثاني... لأن البطولات تتزامن، فتراعي فقط مواعيد الدراسة في المدارس اللغات بالنظام الأمريكي، ففهمت عندئذ كيف يشغلون الناس بالرياضة التي هي في ذاتها عمل مباح، لتصير إلى عمل تجاري (بيزنس) يشغل عن الواجبات.

2 ) رواه أبو داود ج12 ص 492 رقم 4214، وصححه الألباني: صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 101، والجامع 1069/1.

وبإسقاط ما تقدَّم على جريمة إضلال الآباء لأبنائهم بالملهيات، نجد أنها من أعظم الآثام، لما فيها من تعويدهم على عدم تعظيم شعائر الله، والاستهزاء، من هنا يستحقون التهديد بالعذاب المهين؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ)، فالأولاد والأبناء هم مسؤولية الآباء، ليس من حيث التغذية والكساء والترفيه وحسب، ولكن هناك جانب تربوي يجب ألا يغفلوا عنه لا يَقل أهميةً عن إصلاح شؤونهم من الناحية البدنية والجسدية، وألا وهو تأصيل عقيدتهم وتثبيتها على الحق، وتربيتهم على الإسلام، ومن يغفل عن أداء هذا الواجب فقد كفاه ذلك إثمًا.

قوله: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [لقمان: 7]، وأصدقُ مثال على ذلك هو أبو لهب، كان يأتيه النبي صلى الله عليه وسلم بالذكرى، ويعرِّض عنه ويتولى عنها مستكبرًا، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ أَبُو لَهَبٍ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، فَنَزَلَتْ {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد: 1][1].

فقد رُوي أن النَّبِي صلى الله عليه وسلم صَعِدَ عَلَى جبل الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا ... فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ قَالُوا نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا قَالَ فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ

1 ) رواه البخاري ج5 ص 198 رقم 1307.

بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)[1]، فقال أبو لهب تلك المقالة؛ حيث كان مشغولًا بتجارة الشتاء والصيف، ومشغولًا بالتفاخر بالأنساب والأحساب، وهو مثل قريش قد التهى بقصص الفرس وعبادة الأصنام، وهكذا يحصل التكبر عن الموعظة بسبب الانشغال بالملهيات.

فتوصيفُ حالة الكبر التي ابتُلي بها المستكبر بأنه كأن أذنيه معطَّلة عن السماع للموعظة، ليؤكد أن ما يسمعه من ملهيات أرهقه عن سماع آيات الله وتدبُّر معانيها، ولذلك رجح الشنقيطي أن التشبيه الوارد في الآية المقصود منه الوقر المعني وليس الحسي، فقال: (والوقر المجعول على آذانهم بالفعل، هو الوقر المعنوي المانع من سماع الحق فقط، دون سماع غيره، والعلم عند الله تعالى)[2].

فمن يستغرق يومه ووقته في مشاهدة المسلسلات، وسماع الأغاني، ماذا تبقى له من طاقة ليسمع من جديد ما أنزل الله من قرآن، ويشاهد بعينه ما خلق الله في الكون من آيات؟ فإذا ما نظرنا إلى أحوال البيوت نجد أن هذه الآية تلقي بظلالها على ما يحدث فيها؛ حيث التلهي بالملهيات، وقد صار سماع كلام الله يؤذي الأسماع سواء الآباء أو الأبناء، فإذا مرت آية على أذنه بدون قصدٍ وهو يقلِّب قنوات التلفاز، تجده يُعرض عنها مستكبرًا كأن لم يسمعها، كأن في أذنه صممًا، ثم تراه يقبل على الملهيات والمضلات، ويترك القرآن والصلاة.

قوله: (فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)؛ أي: للذي حاله على مثل ذلك التلهي والإعراض، والخطاب هنا هو تحذيري، تضمن تغليظًا للتحذير من الوقوع في مثل ذلك.

---

1 ) رواه البخاري ج14 ص 434 رقم 4397

2) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج6 ص179.

والتبشير إخبار بما سيحصل مستقبلًا، ومحل البشرى (الخبر السار)، لكن العذاب الأليم ليس كذلك، فتضمن اللفظ معنى التهكم والسخرية من حال مَن يصرف وقته في التلهي، فيَضل عن سبيل الله، ويُعرض عن سماع التذكرة، فإنه لن يَجني من هذا السلوك المريض غير العذاب الأليم؛ أي خسران عمره فيما لا فائدة منه، وخسران آخرته التي هي عاقبة أمره.

قوله: (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ)، فأهل الإيمان مشغولون بالعمل الصالح، فهم لا ينشغلون بالملهيات التي تقتل الوقت وتضيّع العمر، بل كل ما لديهم من طاقات وأوقات يَصرفونه في أعمال الصالحات.

وليس معنى ذلك أن أهل الإيمان لا يلتهون إلا بغير الطاعات، فأهل الإيمان ليسوا بمنأى عن الفتنة، فقد تطالهم الفتنة في أهلهم وأموالهم، فليس بلازمٍ أن تكون المعصية هي سبب الإضلال عن سبيل الله، بل إن الانشغال كذلك بالمباحات كثيرًا ما يكون السبب الأول للضلال عن سبيل الله؛ قال ابن بطال: (ومن فتنة الأهل الإسراف والغلو في النفقة عليهنَّ، والشغل بأمورهنَّ عن كثير من النوافل، وفتنته في ماله أن يشتدَّ سرورُه به حتى يغلب عليه، وهذا مذموم)[1].

والنبي صلى الله عليه وسلم نفسه تعرض عليه الفتن مثله مثل آحاد الناس، لكن قلبه لا يلتهي بها، فعَنْ عَائِشَةَ نَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم صَلَّى فِي خَمِيصَةٍ لَهَا أَعْلَامٌ فَنَظَرَ إِلَى أَعْلَامِهَا نَظْرَةً فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفًا عَنْ صَلَاتِي)[2]، وفي رواية: (فإني نظرت إلى علمها في الصلاة، فكاد يفتنني)[3]، قال ابن بطال: (ألا ترى

---

1 ) شرح صحيح البخاري ج4 ص 13.

2 ) رواه البخاري ج2 ص 117 رقم 360.

أن النبي لما نظر إلى علم الخميصة في الصلاة ردَّها إلى أبي جهم، وقال: (كاد يفتنني)، فتبرأ من مالٍ خشي منه الفتنة)[1].

ولذلك فقد تعوَّذ النبي صلى الله عليه وسلم من مضلات الفتن، وعوَّذ أصحابه وزوجاته من ذلك، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن مما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى)[2]، وكان يعوِّذ زوجاته، فيقول لهنَّ قُلْنَ: (اللَّهُمَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ مَا أَحْيَيْتَنَا)[3].

وقد فهِم الصحابة ذلك الأمر، وانتبهوا إلى أنه ليس أحد بعيد عن الفتنة، ولكن الواجب هو الحذر منها، فقد روي عن ابن مسعود أنه قال: (لا يقل أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة؛ لأن الله يقول: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [التغابن: 15]، فأيكم استعاذ، فليَستعذ بالله من مضلات الفتن)[4].

والصالحون إذا مستهم فتنة تطهَّروا منها بالأعمال الصالحات، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ

---

3 ) رواه أحمد 51 ص 430 رقم 24373 ومالك في الموطأ والبيهقي في سننه..الخ، وصححه الألباني: صحيح أبي داود ج4 ص 72

1 ) شرح صحيح البخاري ج4 ص 13.

2 ) رواه الطبراني في المعجم الصغير ج1 ص 309 رقم 511، وصحَّحه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 246 رقم 2143.

3 ) رواه أحمد ج44 ص 200 رقم 26576، وضعفه الألباني.

4 ) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج4 ص 13.

وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ – أي في الذنب – زَادَتْ – أي النكتة السوداء – فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14][1].

وتفسير ذلك واضح فيما رُوي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ الأَنْصَارِيَّ كَانَ يُصَلِّي فِي حَائِطِهِ، فَطَارَ دُبْسِيٌّ (طائر صغير[2])، فَطَفِقَ يَتَرَدَّدُ يَلْتَمِسُ مَخْرَجًا، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ، فَجَعَلَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ سَاعَةً ثُمَّ رَجَعَ إِلَى صَلاَتِهِ، فَإِذَا هُوَ لاَ يَدْرِي كَمْ صَلَّى، فَقَالَ لَقَدْ أَصَابَتْنِي فِي مَالِي هَذَا فِتْنَةٌ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَذَكَرَ لَهُ الذي أَصَابَهُ فِي حَائِطِهِ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ صَدَقَةٌ لِلَّهِ، فَضَعْهُ حَيْثُ شِئْتَ)[3]؛ أي فعل ذلك وتصدق بماله، لعلمه أن ما عند الله من النعم خير مما انشغل به في صلاته، وأن وعد الله حق، فتجرَّد من الشواغل وإن كانت حلالًا لما وجد في نفسه ضعفًا منها.

قوله: (خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، فكما أنهم ظلوا متجردين عن الشواغل في الدنيا، ولجؤوا إلى الذكر، فإن الجزاء من جنس العمل؛ حيث يخلدون في جنات النعيم التي وعدهم الله بها، فيُعزهم بجنابه، ويُفيض عليهم بحكمته.

---

1 ) رواه ابن ماجه ج12 ص 294 رقم 4234 وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج2 ص 417 رقم 3422

2 ) النهاية في غريب الأثر ج2 ص 207

3 ) رواه مالك في الموطأ ج1 ص 282 رقم 221 وضعفه الألباني

## المحور الثاني: عبادة التفكر هي الأساس التربوي لمعرفة الله وتحدي المستكبرين الظالمين:

قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [لقمان: 10، 11].

حثَّ ابن القيم على النقاء الفكري، وتزكية التصور، وتهذيب الأوهام والخطرات، من خلال عبادة التفكر في آيات الله المنزلة والمشهودة، ونعمه وإحسانه على خلقه، والتفكر في عيوب النفس، وكيفية تمضية الوقت فيما هو أَولى، بدلًا من شغلها بالملهيات وما لا ينفع، فقال: (وأعلى الفكر وأجلها وأنفعُها ما كان لله والدار الآخرة، فما كان لله فهو أنواع:

الأول: الفكرة في آياته المنزَّلة، وتعقُّلها وفَهمها، وفَهم مراده منها، ولذلك أنزلها الله تعالى لا لمجرد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة، قال بعض السلف: أُنزل القرآن ليُعمَل به، فاتَّخذوا تلاوته عملًا.

الثاني: الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته، وإحسانه وبره وجُوده، وقد حثَّ الله سبحانه عباده على التفكر في آياته وتدبرها وتعقُّلها، وذم الغافل عن ذلك.

الثالث: الفكرة في الآية وإحسانه وإنعامه على خلقه بأصناف النعم، وسَعة مغفرته ورحمته وحِلمه، وهذه الأنواع الثلاثة تَستخرج من القلب معرفةَ الله ومحبته وخوفه ورجاءه، ودوامُ الفكرة في ذلك مع الذكر يَصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغةً تامة.

الرابع: الفكرة في عيوب النفس وآفاتها، وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة عظيمة النفع، وهذا باب كل خير، وتأثيرها في كسر النفس الأمَّارة بالسوء، ومتى كُسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت، وصار الحكم لها، فحَيِيَ القلب ودارت كلمته في مملكته، وبث أمراءه وجنوده في مصالحه.

الخامس: فقه الوقت وقد مضى ذكره.

وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر، فإما وساوس شيطانية، وإما أماني باطلة وخِدع كاذبة، بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارى والمحشوشين والموسوسين)[1].

قوله: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)، تباهى الله سبحانه بقدرته على خلق السماوات والأرض والجبال والدواب والمطر والزرع، وتلكم الستة هي عناصر الكون الرئيسية التي منها تنشأ الحياة، وهي ما خلق الله في ستة أيام، كما بيَّن الحديث الذي يشير إلى نشأة الكون، فعن أبي هريرة قال: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِيَدِي، فَقَالَ: خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ)[2].

---

1 ) الجواب الكافي ج1 ص 109

2 ) رواه مسلم ج13 ص 376 رقم 4997

فعلماء الفضاء يُقرون بأن كوكب الأرض هو الكوكب الوحيد في المجموعة الشمسية التي يصلح لحياة الإنسان لِما فيه من عناصر الكون الرئيسية، ولا سيما الماء والهواء والجاذبية، فالله سبحانه لما خلق الأرض مهَّدها ليستقر فيها الإنسان، وجعل معه من الدواب ما يستأنس به، ويعتمد عليه في غذائه وانتقاله ودوائه وكسائه.

ولو عقدنا مقارنة بين كواكب المجموعة الشمسية بالنسبة لمتوسط درجة الحرارة على سطح الكوكب، لكانت النتائج كالتالي عطارد 167 درجة – الزهرة 464 درجة – الأرض 15 درجة – المريخ – 65 درجة – المشترى – 110 درجة، زحل -140 درجة، أورانوس -195 درجة، نيبتون -200 درجة.

ما يعني أن كوكب الأرض هو الكوكب الوحيد الذي يصلح لعيش الإنسان، كذلك الحال لو أخذنا نسبة الأكسجين في الغلاف الجوي لكل كوكب وجهًا لهذه المقارنة؛ حيث يشكل الأكسجين 21% من الغلاف الجوي الآن، فهذه النسبة تعني أن كوكب الأرض غني بالأكسجين، وذلك مقارنةً بأقرانه من الكواكب القريبة، حيث تبلغ نسبة الأكسجين في المريخ حوالي 0.1% حجمًا، كذلك الحال لو جعلنا نسبة الماء عنصرًا في هذه المقارنة.

قوله: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا..)، فالتفكر في صفحة السماء وهي مرفوعة بغير عمدٍ، وتحيط بالكرة الأرضية من كل جانب، لهو نوعٌ من التلهي والتسلية، وهو في حقيقته عبادة لله تعالى؛ لأن الفكر يستغرق كثيرًا من الوقت يتفكَّر في بديع خلق الله وصنعه وقدرته، وحكمته وعجائبه، سبحانه قال: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} [الرعد: 2]، وقال: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [الحج: 65].

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك قبل أن ينزل عليه الوحي، وهو ما يدل على كمال عقله وحكمته قبل البعثة، فعن عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ ... ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ أُوْلَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ.. حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ؛ أي: الوحي)[1]، قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: حُببت العزلة إليه صلى الله عليه وسلم؛ لأن معها فراغ القلب، وهي معينة على التفكر، وبها ينقطع عن مألوفات البشر، ويتخشع قلبه)[2].

ونحن في زمننا هذا إذا أردنا أن نقتدي بالرسول صلى الله عليه وسلم، ونتحنث مثلما كان يفعل، فنتفكَّر في خلق السماوات والأرض، فإننا بمجرد أن نقرأ ما توصل إليه العلماء، لنجد العجب العجاب؛ إذ تشير الدراسات الكونية إلى وجود قوى مستترة في اللبنات الأولية للمادة، وفي كل من الذرات والجزيئات، وفي كافة أجرام السماء، تحكم بناء الكون، وتُمسك بأطرافه إلى أن يشاء الله تعالى، فيدمره، ويعيد خلق غيره من جديد.

ومن الطريف أن نتعرَّف إلى ما توصل إليه علماء الفضاء من أنهم يُقرون بأنه توجد أربع صور للقوى التي تحكم السماء والأرض، ويعتقدون أنها ترتبط معا ارتباطًا وثيقًا تتمثل في (القوة النووية الشديدة والضعيفة – والقوة الكهرومغناطيسية – وقوة الجاذبية)، فهذه القوى هي الدعائم الخفية

---

1 ) رواه مسلم ج1 ص 381 رقم 231.

2 ) شرح النووي على مسلم ج2 ص 198.

التي يقوم عليها بناء السماوات وإحاطتها بالأرض، ولها طبيعة تراكمية تمسك بكافة أجرام السماء، ولو زال هذا الرابط لانفرط عقد الكون.

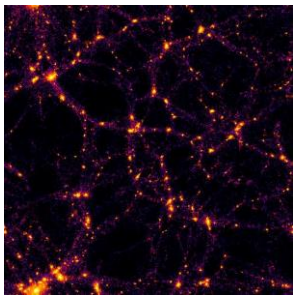

هذه صورة تحاكي الكون وكأننا ننظر إليه من الخارج! نرى فيه مجموعات من المجرات متشابكة معًا في خيوط، وكل خيط من خيوطه يمتد لملايين السنوات الضوئية، تقع عليه مئات المجرات.

في محاولة لجمع القوى الأربع المعروفة في الكون (القوة النووية الشديدة والقوى النووية الضعيفة، والقوة الكهرومغناطيسية، وقوة الجاذبية)، في صورة واحدة للقوة اقترح علماء الفيزياء ما يعرف باسم نظرية الخيوط العظمى(The Theory Of Superstrings) [1].

قوله: (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ..): التفت إلى مشهد الجبال الشامخات، وهي ملقاة في الأرض كالأوتاد، تقوم بوظيفتها في إرساء الأرض، لتدور حول نفسها بمتوالية رياضية

1 ) وتقترح النظرية وجود مادة خفية (Shadow Matter)، يمكنها أن تتعامل مع المادة العادية عبر الجاذبية؛ لتجعل من كل شيء في الكون (من نواة الذرة إلى المجرة العظمى، وتجمعاتها المختلفة إلى كل السماء) بناء شديد الإحكام، قويّ الترابط.

وقد تكون هذه المادة الخفية هي ما يسمَّى باسم المادة الداكنة (Dark Matter)، والتي يمكن أن تعوض الكتل الناقصة في حسابات الجزء المدرك من الكون، وقد تكون من القوى الرابطة له .

بالغة الدقة[1]، كما تحفظ للأرض توازنها وثباتها أثناء دورانها حول نفسها، وأثناء دورانها حول الشمس، فلا تخرج عن مدارها وفلكها المحدَّد لها.

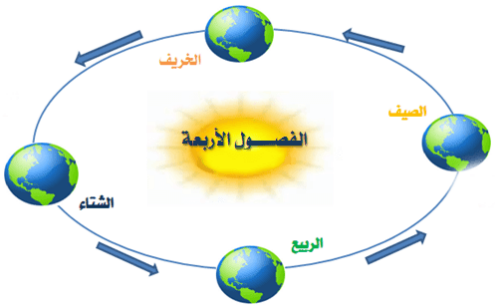


قوله: (..بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ..): استظهرت الآيات قدرة الله؛ ليرى الناس كيف أنه سبحانه نشر الدواب كلها لتجد مأواها ومأكلها على هذه الأرض، من طير وبهيمة وإنسان وجن وحيوان...إلخ، لتشارك الإنسان العيش على كوكب الأرض، فينتبه الإنسان إلى ما يعيش معه من الدواب، وفي ذلك حضٌّ له على الإحسان لجيرانه من الكائنات الأخرى؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ

1 ) وتدور الأرض حول محورها مرة واحدة كل 24 ساعة، أو على وجه الدقة كل 23 ساعة و56 دقيقة و4 ثوان، ويبلغ محيط الكوكب 24898 ميلًا (40.070 كيلومترًا)، لذلك عندما تقسم المسافة على الوقت، فهذا يعني أن الكوكب يدور 1037 ميلًا في الساعة (1670 كم / ساعة).

فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا فَقَالَ فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ)[1].

والله تعالى قد خلق هذه الدواب؛ ليستعين بها الإنسان ويقتات ما يحتاجه منها غذاءً فيما أحله الله له، لا من باب اللهو واللعب والتسلي، وإنما من باب التغذية والدفء والدواء والكساء والانتقال؛ قال تعالى: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [النحل 8]، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: (مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا، سَأَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا حَقُّهَا قَالَ حَقُّهَا أَنْ تَذْبَحَهَا، فَتَأْكُلَهَا، وَلَا تَقْطَعْ رَأْسَهَا فَيُرْمَى بِهَا)[2].

قوله: (..أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ): تحدثت عن الزراعة المطرية، وكيف أن الله يُنبت بها كلَّ زوج كريم، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً)[3]، وفي رواية: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ)[4].

قوله: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ): هذه دعوة إلى إشغال الناس بخلق الله، وحضّهم على التفكر فيه، بدلًا من التلهي بالملهيات التي تضل

---

1 ) رواه مسلم ج11 ص 304 رقم 4162.

2 ) رواه النسائي ج13 ص 454 رقم 4369، وصححه الألباني: صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 275.

3 ) رواه مسلم ج8 ص 177 رقم 2901.

4 ) رواه البخاري ج8 ص 118 رقم 2152.

عن سبيل الله، ومقارنة ذلك بقدرة الإنسان؛ ليستشعر عجزه إزاء القدرة المطلقة لخالق هذا الكون، ولا سيما الآباء، فيبدؤون بتعليم أبنائهم عقيدة الإسلام، بحثِّهم على التفكر في خلق الله سبحانه، والحديث معهم عن ذلك.

قال ابن القيم: (الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين، أحدهما: النظر في مفعولاته، والثاني: التفكر في آياته وتدبُّرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة، فالنوع الأول كقوله: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} [البقرة: 164]، والثاني كقوله: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} [النساء: 82]، فأما المفعولات فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فإن المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه)[1].

قوله: (بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ): ذلك أن الذي لا يتفكر في آياته ومخلوقاته ظالمٌ لنفسه، لانشغاله بالملهيات عما هو أليق بالانشغال وأَقيمُ، فعن النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد نزلت علي الليلة آية ويل لِمَن قرأها ولم يتفكَّر فيها {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ})[2].

---

1 الفوائد ج1 ص 20.

2 ) رواه ابن حبان في صحيحه ج2 ص 386 رقم 620، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة ج1 ص 67.

## المحور الثالث: وصايا لقمان الحكيم منهج التربوي لكل ابن:

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان: 12 - 19].

تُعزى أهمية وصايا لقمان لابنه في مقام شرح الأسس التربوية للأبناء وأولويات المنهج التربوي - إلى أن لقمان لم يضع هذه الأسس، ولم يرتّب الأولويات وفقًا لهواه، بل إن مصدره هو ما آتاه الله من الحكمة، فالحكمة قائد ودليل، و(الحكمة): المنطق الذي يتّعظ به ويتنبه به، ويتناقله الناس لذلك[1].

1 ) البحر المحيط ج9 ص 112.

قوله: (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ..): قال ابن عاشور: (كان أول ما لقَّنه لقمان من الحكمة، هو الحكمة في نفسه بأن أمره الله أن يَشكره على ما هو محفوفٌ به من النعم)[1]، (وذلك قبل التصدي لإرشاد غيره)[2]، ولذلك قيل: إن (الشكر رأس الحكمة)[3]؛ لأنه نابع من معرفة بالمنعم، وإقرارٍ بنعمه وصرفها فيما خُلقت لأجله، بل هي الترجمة العملية للخوف من الله، ولذلك قيل كذلك: إن (الخوف من الله رأس الحكمة)[4]، مما أوهم أن للحكمة رأسين، بل هي رأس واحدة، وهي الشكر؛ لأن من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل؛ أي دخل الجنة، أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[5]، فالشكر يكشف عما في القلب من معرفة بالله وخوف منه، والمعرفة والخوف يترجمان إلى شكر لله، فالشكر لله يدل على وجودهما.

والذي يؤكد أن الشكر رأس الحكمة قوله صلى الله عليه وسلم: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَآخَرُ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا)[6]، فالقضاء بالحكمة وتعليمها، هو صورة من صور الشكر لله، بل هي غاية الشكر؛ قال ابن الجوزي:

---

1 ) التحرير والتنوير ج21 ص 98

2 ) التحرير والتنوير ج21 ص 98.

3 ) التحرير والتنوير ج21 ص 98.

4 ) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود ج1 ص 470 رقم742، وضعفه الألباني في الجامع الصغير ج1 ص682، رقم 6811، وانظر مجمع الأمثال للنيسابوري ج2 ص 448.

5 ) رواه الترمذي ج8 ص 489 رقم 2374 مرفوعًا، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة ج5 ص 442، ج1ص1117.

6 ) رواه البخاري ج22 ص 48 رقم 6608.

(المراد بالحسد الغبطة، والغبطة تَمني مثل نعمة المحسود من غير حبِّ زوالها عن المغبوط، وهذا ممدوح، ولَما كان كثيرٌ من الناس لا يفرِّقون بين الحسد والغبطة، سُمِّي هذا باسم هذا تجوزًا)[1].

قال ابن عاشور: (وقد كانت الحكمة تطلق عند العرب على الأقوال التي فيها إيقاظٌ للنفس ووصاية بالخير، وإخبار بتجارب السعادة والشقاوة، وكليات جامعة لجماع الآداب)، لكن (فسرت الحكمة هنا بالحث على الشكر لله)[2]؛ لأنه لما كان الوقت هو عمر الإنسان – فكلما مضى اقترب أجله – كان من الحكمة أن يُمضي العبد أوقات عمره فيما فيه فائدة، ويجني ثماره في الآخرة، وخير ما يمضي فيه العبد وقته في شكر ربِّه على نعمه، فالشكر دليلُ الرضا، والرضا علامة القناعة، والقناعة كنز لا يفنى.

من هنا كانت تصرفات الحكيم حكيمة، فالحكمة هي مناط استجلاب الخطرات أو دفْعها، وتقديمها أو تأخيرها، وحصرها في أجلها وأنفعها، ولا شك أن الشكر لله أنفع وأجل بإطلاق، ولذلك قال ابن القيم: (ثُمَّ الْخَطَرَاتُ بَعْدُ أَقْسَامٌ تَدُورُ عَلَى أَرْبَعَةِ أُصُولٍ:

خَطَرَاتٌ يَسْتَجْلِبُ بِهَا الْعَبْدُ مَنَافِعَ دُنْيَاهُ.

وَخَطَرَاتٌ يَسْتَدْفِعُ بِهَا مَضَارَّ دُنْيَاهُ.

وَخَطَرَاتٌ يَسْتَجْلِبُ بِهَا مَصَالِحَ آخِرَتِهِ.

وَخَطَرَاتٌ يَسْتَدْفِعُ بِهَا مَضَارَّ آخِرَتِهِ.

---

1 ) كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 193

2 ) ابن عجيبة ج5 ص 29.

فَلْيَحْصُرِ الْعَبْدُ خَطَرَاتِهِ وَأَفْكَارَهُ وَهُمُومَهُ فِي هَذِهِ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ، فَإِذَا انْحَصَرَتْ لَهُ فِيهَا أَمْكَنَ اجْتِمَاعُهُ مِنْهَا وَلَمْ يَتْرُكْهُ لِغَيْرِهِ، وَإِذَا تَزَاحَمَتْ عَلَيْهِ الْخَطَرَاتُ لِتَزَاحُمِ مُتَعَلِّقَاتِهَا، قَدَّمَ الْأَهَمَّ فَالْأَهَمَّ الَّذِي يَخْشَى فَوْتَهُ، وَأَخَّرَ الَّذِي لَيْسَ بِأَهَمَّ وَلَا يَخَافُ فَوْتَهُ.

بَقِيَ قِسْمَانِ آخَرَانِ:

أَحَدُهُمَا: مُهِمٌّ لَا يَفُوتُ.

وَالثَّانِي: غَيْرُ مُهِمٍّ وَلَكِنَّهُ يَفُوتُ.

فَفِي كُلٍّ مِنْهُمَا مَا يَدْعُو إِلَى تَقْدِيمِهِ، فَهُنَا يَقَعُ التَّرَدُّدُ وَالْحَيْرَةُ، فَإِنْ قَدَّمَ الْمُهِمَّ؛ خَشِيَ فَوَاتَ مَا دُونَهُ، وَإِنْ قَدَّمَ مَا دُونَهُ فَاتَهُ الِاشْتِغَالُ بِهِ عَنِ الْمُهِمِّ، وَكَذَلِكَ يَعْرِضُ لَهُ أَمْرَانِ لَا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، وَلَا يَحْصُلُ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِتَفْوِيتِ الْآخَرِ.

فَهُوَ مَوْضِعُ اسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ وَالْفِقْهِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَمِنْ هَاهُنَا ارْتَفَعَ مَنِ ارْتَفَعَ وَأَنْجَحَ مَنْ أَنْجَحَ، وَخَابَ مَنْ خَابَ، فَأَكْثَرُ مَنْ تَرَى مِمَّنْ يَعْظُمُ عَقْلُهُ وَمَعْرِفَتُهُ، يُؤْثِرُ غَيْرَ الْمُهِمِّ الَّذِي لَا يَفُوتُ عَلَى الْمُهِمِّ الَّذِي يَفُوتُ، وَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ.

وَالتَّحْكِيمُ فِي هَذَا الْبَابِ لِلْقَاعِدَةِ الْكُبْرَى الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ، وَإِلَيْهَا مَرْجِعُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَهِيَ إِيثَارُ أَكْبَرِ الْمَصْلَحَتَيْنِ وَأَعْلَاهُمَا، وَإِنْ فَاتَتِ الْمَصْلَحَةُ الَّتِي هِيَ دُونَهَا، وَالدُّخُولُ فِي أَدْنَى الْمَفْسَدَتَيْنِ لِدَفْعِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا، فَيُفَوِّتُ مَصْلَحَةً لِتَحْصِيلِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا، وَيَرْتَكِبُ مَفْسَدَةً لِدَفْعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا.

فَخَطَرَاتُ الْعَاقِلِ وَفِكْرُهُ لَا يُجَاوِزُ ذَلِكَ، وَبِذَلِكَ جَاءَتِ الشَّرَائِعُ، وَمَصَالِحُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ، وَأَعْلَى الْفِكَرِ وَأَجَلُّهَا وَأَنْفَعُهَا: مَا كَانَ لِلَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ)[1].

وقد جمع أحد الباحثين الدعاة في كتابه الحكمة الأمثلة المشتهرة على الألسنة ذات معنى جيد عن الحكمة، وإن كان سندها جميعًا ضعيفًا في رفعها أو وقفها، فإننا نذكر الجيد منها للفائدة كحكمٍ وأمثلة، ومنها[2]:

1- «إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهدًا في الدنيا وقلة منطق، فاقتربوا منه، فإنه يلقن الحكمة».

2- «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقُّ بها».

3- «مَن أخلص لله ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه».

4- «الطمع يذهب الحكمة من قلوب العلماء».

5- « قلب ليس فيه حكمة كبيت خرب».

6- «رأس الحكمة مخافة الله».

7- «الرفق رأس الحكمة».

9- «الحكمة تزيد الشريف شرفًا، وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك».

---

1 الجواب الكافي ج1 ص 108.

2 ) الحكمة ج1 ص 20.

قوله: (أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ..): فأولُ حدِّ الشكر الاعتراف بنعم الله وحمده عليها، ولذلك قيل: (الحمد رأس الشكر، وما شكر اللهَ عبدٌ لا يحمده)[1]، فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمَده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها"[2]، وقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)[3]، ولذلك قيل: (إن حد الشكر الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه)[4].

والحد الآخر لشكر الله على نعمه، هو أداء النعمة فيما خُلقت من أجله؛ أي تسخيرها في طاعة الله؛ قال ابن عاشور: (ويعرف الشكر – أي في أحد حدّيه – بأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من مواهب ونِعم فيما خُلق لأجله)[5]، وقال ابن القيم في الشكر قيل إنه: (هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجَريان اللسان بذكره والثناء عليه، وقيل: (هو مشاهدة المنة، وحفظ الحرمة)[6]، وجميع هذه الأقوال مردُّها إلى صرف النعم فيما خُلقت لأجله من أعمال الطاعات.

---

1 ) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج4 ص 96 رقم 4395 وهو ضعيف مرفوعا ولا غرو في روايته كحكمة أو مثال

2 ) رواه مسلم.

3 ) رواه ابن ماجه ج10 ص 7 رقم 3276، وصححه الألباني: صحيح كنوز السنة ج1 ص 133.

4 ) مدارك السالكين ج2 ص 244.

5 ) التحرير والتنوير ج21 ص 98.

6 ) مدارك السالكين ج2 ص 244.

ولما كان الابن نعمة من نعم الله؛ كما في قوله: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ} [الشورى: 49]، فالولد هبة من الله، وشكر هذه النعمة يقتضي الحفاظ على الولد، وذلك برعايته وتغذيته وتأديبه وتعليمه، وتربيته على شكر مولاه، فيتعلم قواعد الشكر الخمس، قال ابن القيم: (والشكر مبني على خمس قواعد: (خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره)، فهذه الخمس: هي أساس الشكر وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة، اختل من قواعد الشكر قاعدة)[1].

إذًا العلاقة بين الشكر والحكمة هي علاقة مترابطة مطردة، فكلما ازدادت الحكمة بالمعرفة، ازداد الشكر بالعمل، فالحكيم لا يضيّع وقته في غير الشكر لله، من هنا نلحظ كيف أن موعظة لقمان لابنه لم تكُ قاصرة على حضِّه على شكر ربه وحسب، بل كان هو نفسه شاكرًا لله، فأضحى أسوةً له ليَحتذي به؛ أي: كان لقمان قبل أن يعظ ابنه شاكرًا، فكان قدوة له.

فإذا كان المربي حكيمًا؛ أي شاكرًا، فإن المتلقي لابد أن يحظى منه بشيء من الحكمة، ويتأدَّب بأدب الشكر، بذلك تبدو أهمية أن يكون الأب إمامًا لابنه على الحق، فيشغله بما ينفع، ويعيذه بالله عما لا ينفع ويضر، من هنا نستوعب كيف يكون العبد شاكرًا لله على نعمة الولد.

وهذا هو ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، ولا سيما الصغار منهم؛ حيث كان يصرف كثيرًا من الأوقات في تعليمهم بعضَ الأدعية والأذكار، لما فيها من تأثير ملموس على القلب، وارتباط بالله، ولأن وقت النبي صلى الله عليه وسلم غالٍ، ولابد أن يصرف جهده الدعوي فيما هو أنفع، فإنه لو لم يكن هذا العمل من الحكمة، لَما أسدى هذه النصائح لصغار الصحابة

---

1 ) مدارك السالكين ج2 ص 244

على هذا النحو، بل إن أغلب صحابة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا صغارًا، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما يلي:

- وُلد عبد الله بن عباس عام الهجرة، ولذلك قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ، وَقَدْ قَرَأْتُ الْمُحْكَمَ)[1].

- وعن بن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا هذا الدعاء كما يعلمنا السورة من القرآن: (أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من فتنة القبر)[2].

- وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُعَلِّمُنَا التَّشَهُّدَ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنْ الْقُرْآنِ، فَكَانَ يَقُولُ التَّحِيَّاتُ الْمُبَارَكَاتُ الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ لِلَّهِ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ)[3].

- وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَلَا أَحْفَظُ حَدِيثَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ أَنَّهُ قَالَ كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا غُلَامُ، أَوْ يَا غُلَيِّمُ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ، فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ

---

1 ) رواه البخاري ج15 ص 451 رقم 4647.

2 ) رواه البخاري ج1 ص 241 رقم 694.

3 ) رواه مسلم ج2 ص 369 رقم 610.

جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)[1].

- وعن معاذ بن جبل[2] قال أخذ بيدي النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا معاذ، قلت: لبيك، قال: إني أُحبك، قلت: وأنا والله أحبك، قال: ألا أعلمك كلمات تقولها في دبر كل صلاتك؟ قلت: نعم، قال: قل: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[3].

قوله: (..وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ..): فالحكمة تقتضي أن يُشكر الله على نعمه، فثمرة الشكر تعود على الشاكر نفسه بحفظ النعمة والزيادة فيها؛ قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: 7].

إذًا الشكر دليلُ ظهور أثر النعمة على العبد؛ كما في قوله: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: 11]، وفي الحديث: (فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ تَسْمَنُ وَتَبْطَرُ وَتَشْكَرُ شَكَرًا مِنْ لُحُومِهِمْ)[4].

---

1 ) رواه أحمد في مسنده ج6 ص 198 رقم 2666 والطبراني في الأوسط والكبير والبيهقي في شعب الإيمان وصححه الألباني: الجامع الصغير ج 1 ص 1392 رقم 13917 وصحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 102

2) قيل مات وعمره 33 أو 34 أو 38 سنة، وذلك سنة 17 هـ أو 18 هـ في طاعون عمواس، ما يدل على صغر سنه.

3 ) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 239 رقم 690، وصححه الألباني: صحيح الأدب المفرد.

4 ) رواه الترمذي ج10 ص 428 رقم 3078، وصححه الألباني: صحيح الترمذي ج 3 ص 73 رقم 2520.

فمن آتاه الله الحكمة سخَّره لشكره وحمده، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم (يُصَلِّي حَتَّى تَرِمَ أَوْ تَنْتَفِخَ قَدَمَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)[1]، نستلهم من هذا الحديث فقه تربية الاب لابنه بأن يربيه على أن يشغل نفسه بالدين الذي هو مدين به لله، فالله سبحانه له عليه كثيرٌ من النعم، وواجب عليه شكره عليها، لكن لَما كان من المتعذر على العبد أن يعد نعمة واحدة من نعم الله، لقوله: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [النحل: 18]، فإن لن يوفي ربه حق شكره، لكن لما كانت الاستطاعة مناط التكليف، ولا تكليف إلا بما هو مقدور، فإن الواجب أن يمضي العبد كلَّ وقته في شكر الله دون كللٍ أو مللٍ، لعل الله سبحانه يقبل منه ذلك، ولن يوفِّيه حقه، وحتى يتعلم الابن هذا المعنى لابد من التدرج في العمل.

لكن قبل العمل لابد أن يكون هذا المفهوم واضحًا في ذهنه؛ حتى لا يستكثر ما يفعله من الشكر على الله، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ ارْضَخِي مَا اسْتَطَعْتِ)[2]؛ أي: لا تَجْمَعِي وَتَشِحِّي بالنَّفقة، فَيُشَحَّ عليك وتُجَازَيْ بِتَضْيِيقِ رِزْقِكِ[3]، وهذا لا ينافي ما قرره السلف من جواز عد التسبيح على الأصابع أو الحصى، إذا كان الغرض منه التحفيز لبلوغ عددٍ معين، وليس الغرض منه التباهي بالكثرة.

---

1 ) رواه البخاري ج20 ص 109 رقم 5990.

2 ) رواه البخاري ج5 ص 258 رقم 1344.

3 ) النهاية في غريب الأثر ج5 ص 456 لابن الأثير.

قوله: (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ): يعني استغناء الله عن الشكر، فهو غني عن خلقه، وعن عبادتهم له، ففي الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي)[1].

قال كعب الأحبار: (ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا، فشكرها لله، وتواضع بها لله، إلا أعطاه نفعها في الدنيا، ويرفع الله له بها درجةً في الآخرة، وما أنعم الله على العبد من نعمة في الدنيا، فلم يشكر لله، ولم يتواضع بها لله، إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقًا من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه)[2].

وهو سبحانه حميدٌ لمن يشكره، ولشكره لابد أن يشكر عباده، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس)[3]؛ أي: يسدي إليه معروفًا نظير صنيعهم خيرًا له، فذلك شكر الله كذلك؛ أي: إن الذي لا يشكر الناس على إحسانهم، بل يقصِّر في ذلك؛ فإنه أيضًا يقصر في حق الله سبحانه وتعالى، فعلى الإنسان أن يشكر النعم التي حصلت له بسبب

---

1 ) رواه مسلم ج12 ص 455 رقم 4674.

2 ) (الشكر لابن أبي الدنيا، ص64 رقم189).

3 ) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 85 رقم 218، وصححه الألباني: صحيح الأدب المفرد ج 1ص99 رقم 98.

المخلوق الذي جعله الله سببًا في وصولها إليه، ويشكر النعم التي تحصل من الله عز وجل بغير سبب، فيحمد الله ويشكره على كل حال)[1].

قوله: (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ): الموعظة تأتي بعد ارتباط قلب الواعظ بمن يعِظه، وفي هذه الحالة ينشرح قلب الموعوظ بالموعظة، ولا يتأفَّف منها ولا يضجر، وهكذا نادى لقمان ابنه عن قرب (يا بني)،كانت أول موعظة وعظها إياه مباشرةً: (لا تشرك بالله)، يحذِّره من الشرك مؤكدًا أن الشرك ظلمٌ عظيم، وهكذا يكون أول درس يعلمه لقمان لابنه من الناحية التثقيفية والتهذيبية هو "التوحيد"، بعدما قطع معه أشواطًا كثيرًا في التربية العملية والروحية والتفكرية.

ومن صور الشرك بالله أن يسمي حاجته عند من لا يقضي الحوائج، وليس بقادرٍ على ذلك، وينسى أن الله وحده هو القادر على ذلك؛ قال ابن باز: (الشرك على اسمه هو تشريك غير الله مع الله في العبادة)[2]، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ قُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ) [3]، وصورة ذلك كما صح الخبر عن ابن عباس قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: (ما شاء الله وشئت)، قال: (جعلت لله ندا ما شاء الله

1 ) شرح سنن أبي داود لعبد المحسن العباد ج27 ص 459.

2 ) توضيح معنى الشرك بالله https://binbaz.org.sa/fatwas/351/.

3 ) رواه البخاري ج13 ص 394 رقم 4117.

وحده)[1]، وفي رواية عن جابر أن رجلًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه، فقال: (ما شاء الله يعني وشئت)، فقال: (ويلك، أجعلتني والله عدلًا، قل: ما شاء الله وحده)[2].

والشرك يكون كذلك في الحب؛ قال ابن تيمية: (فَمَنْ جَعَلَ لِلَّهِ نِدًّا يُحِبُّهُ كَحُبِّ اللَّهِ فَهُوَ مِمَّنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ، وَهَذَا مِنْ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ)[3]، ولذلك قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: 165]، وهكذا يتعين أن يتجرَّد العبد من كل الشواغل في طلبه من الله وحبه لله وخوفه منه وطمعه فيه، وعبادته له، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَمَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَمَنْ كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ)[4]، قال المناوي في قوله: (وأن يحب المرء لا يُحبه إلا لله)؛ أي: لا يحبه لغرضٍ إلا لغرض رضا الله تعالى[5]، (فإن مَن أحب شيئًا سوى الله، ولا تكُن محبته له لله، ولا لكونه معينًا له على الطاعة، أظلم قلبه فلا يجد حلاوة الإيمان)[6]، قال المباركفوري صاحب

---

1 ) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 274 رقم 783

2 رواه النسائي في سننه الكبرى ج6 ص 245 رقم 10824

3 ) انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج17 ص 145

4) متفق عليه ورواه مسلم ج1 ص 153 رقم 61

5 ) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 937.

6 ) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 752.

التحفة: (أي: لا يُحبه لغرض وعَرَضٍ وعوض، ولا يشوب محبته حظٌّ دنيوي، ولا أمر بشر، بل محبته تكون خالصة لله تعالى، فيكون متصفًا بالحب في الله، وداخلًا في المتحابين لله)[1].

وعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ)[2]، قال المناوي: (فدل على أن مَن لم يحب لله، ويُبغض لله، لم يستكمل الإيمان؛ قال في الكشاف: الحب في الله والبغض في الله، باب عظيم وأصل من أصول الإيمان ومِن لازِم الحب في الله حبُّ أنبيائه وأصفيائه، ومن شرط محبتهم اقتفاءُ آثارهم وطاعة أمرهم؛ قال ابن معاذ: وعلامة الحب في الله ألا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء)[3].

وعن معاذ بن جبل سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الإيمان، قال: أن تحب لله وتُبغض له، وتعمل للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، وأن تقول خيرًا أو لتصمت)[4]، قال المناوي: (فيحب أهل المعروف لأجله، لا لفعلهم المعروف معه ويكره أهل الفساد والشر لأجله لا لإيذائهم له)[5].

قوله: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ): جاءت الوصية من الله سبحانه للوالدين، وخص بها الأم لما تحملته من ألم

---

1 ) تحفة الأحوذي ج7 ص 312.

2 ) رواه أبو داود ج12 ص291 رقم 4061، وصحَّحه الألباني: صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 94 رقم 3029.

3 ) فيض القدير ج1 ص 217.

4 ) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج1 ص 416 رقم 579.

5 ) فيض القدير ج2 ص 38.

الحمل تسعة أو سبعة أشهر لابنها في بطنها، وقد تغذَّى عليها خلال فترة الحمل، فضعُف عظمها ولحمُها، وتحملت حتى ولدته، ثم استمرت ترضعه من لبنها عامين كاملين، حتى إذا فطمته ظلت تُطعمه حتى يصير شابًّا قادرًا على العمل ثم الزواج، كل ذلك وأبوه يمده بالعون والعطف، ويجتهد في العمل لينفق عليهما، فجعل شكر الوالدين من شكر الله، يقول النبي صلى الله عليه وسلم (لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس)[1].

والشكر للوالدين تالٍ للشكر لله، ولذلك فليس ثمة تعارُض بينهما، فإذا أدى العبد الفريضة فإنه يتَّجه لشكر والديه، بالإحسان لهما، وبرهما وصلتهما، وتفقُّدهما، وتلمُّس حاجتهما دون طلب، وتلبية احتياجتهما عند الطلب، والإنفاق عليهما عند التعذر، وخدمتهما عند الحاجة، وقبل الحاجة، والخلاصة إدخال السرور عليهما؛ فعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا)[2].

---

1 ) رواه الأدب المفرد ج1 ص 85 رقم 218.

2 ) رواه البخاري ج8 ص 40 رقم 2111.

قوله: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ): احتراز من أن يكون شكر الوالدين وطاعتهما سببًا للكفر بالله أو الشرك به؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ فعن سعد بن مالك قال: أنزلت فيَّ هذه الآية (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا) الآية، وقال: كنت رجلًا برًّا بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لَتَدَعَنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فَتُعَيَّر بي، فيقال: "يا قاتل أمه"، فقلت: لا تفعلي يا أمَه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثتْ يومًا وليلة لم تأكل، فأصبَحت قد جهدت، فمكثتْ يومًا آخر وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحتْ قد اشتدَّ جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه، تعلمين والله لو كانت لكِ مائة نفس فخَرجت نَفْسًا نَفْسًا، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي، فأكلتْ)[1].

قوله: (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ): جاء بعد نهي الإسلام عن طاعتهما في معصية الله، فإنه بالرغم من مخالفتهما في كل معصية، إلا أن صحبتهما واجبة ما لم تؤدِّ الصحبة إلى الإضرار بالمسلم أو الوقوع في معصية الله، ولذلك عطفت الآية صحبتهما على اتباع سبيل المؤمنين، ومن أناب إلى الله وسار في طريق طاعته، دون التفات إلى من يناديه إلى طريق معصيته، ذلك أن المرجع في النهاية إلى الله

1 ) رواه ابن كثير في تفسيره ج6 ص 337، وابن الأثير في أسد الغابة (216/2) عن داود بن أبي هند.

ولَما كان الاضطراب في برِّهما وطاعتهما في هذا الحال يَعتريه كثير من الشوائب، فيعيَّر المرء بمعصيته لوالديه، وهو في الحقيقة يطيع ربَّه ويخالفهما في معصيته، كان من المناسب تعزية الذي يُنيب إلى الله ويعصي والديه في معصية ربه، ويطيعهما في طاعته بأن الله تعالى خبير بما يعمل، وينبئ كل عامل بما عمل أهو طاعة لله أم معصية.

وعلى العموم فإن صحبتهما في طاعة الله دليلٌ على البر والشكر لهما، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي قَالَ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أَبُوكَ)[1]، قال النووي: (قال العلماء وسبب تقديم الأم كثرة تعبها عليه، وشفقتها وخدمتها، ومعاناة المشاق في حمله، ثم وضعه ثم إرضاعه، ثم تربيته وخدمته وتمريضه، وغير ذلك، ونقل الحارث المحاسبي إجماع العلماء على أن الأم تَفضُل في البر على الأب، وحكى القاضي عياض خلافًا في ذلك، فقال الجمهور بتفضيلها، وقال بعضهم: يكون برهما سواء، قال: ونسب بعضهم هذا إلى مالك)[2].

ولعل مالك أراد أن يلمِّح إلى أن الصحبة والبر غير متلازمين، فالصحبة واجبة سواء أوصياه بطاعة الله أو معصيته، وليصبر عليهما إذا أمراه بمعصيته، لكن البر – الذي يتضمن معنى الطاعة لهما في معصية الله – فليس بلازمٍ عليه حال مجاهدتهما له، بل الواجب عليه مخالفتهما في ذلك، من هنا يتضح أن الصحبة للأم أوجب عنها للأب، يُعزى ذلك لضعف الأم وحاجتها للصحبة

---

1 ) رواه البخاري ج18 ص 363 رقم 5514.

2 ) شرح النووي على مسلم ج16 ص 102.

عن الأب، أما ما في القلب، فإنه يميل إلى مَن هو أقرب منهما لله تعالى وأكثرهم طاعة؛ لأن الحب لا يكون إلا لله.

قوله: (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ): أعاد النداء لابنه وهو يعظه؛ ليضرب له مثالًا على قدرة الله تعالى ولطفه، فاتَّخذ من حبة الخردل هذا المثال، وذلك لحقارتها في الوزن والحجم، فهي أقلُّ من حجم السمسم، وبالرغم من ذلك لا يخفى علمها على الله، وإن كانت مخفية عن الأعين في أي مكان، بل إن الله تعالى يأتي بها، فكذلك الأعمال مهما حقرت في أعين الناظرين يأتي بها الله يوم القيامة ليحاسب العبد عليها، {وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: 94].

فعَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا قَدْ اسْوَدُّوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَا أَوْ الْحَيَاةِ شَكَّ مَالِكٌ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً)[1]، فذلك من لطفه سبحانه أن يستخرج هذه الحبة من الإيمان في قلب أهل النار؛ ليخرجهم منها إلى الجنة.

1 ) رواه البخاري ج1 ص 37 رقم 21.

وعكس ذلك صحيح، فلو كان الكبر في قلب المرء بمثقال ذرة من خردل، فإن ذلك يمنعه من دخول الجنة؛ قال سبحانه: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المجادلة:6]، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبةٍ مِن خَردلٍ مِن كِبر)[1]، فالله خبير بما في القلوب من كبر، وإن كان حقيرًا بمثل ذلك، فطهارة الجنة لا يدنّسها أحقرُ شيء من الكبر.

بذلك يكون لقمان قد علَّم ابنه من أسس التربية التي تقوم على تربة من العقيدة الصحيحة، وتحرّي الإحسان في العمل، والشكر على النعمة، والمراقبة لله في كل عملٍ صغير أم كبير، كما في الحديث الذي سُئل فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)[2].

قوله: (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ): انتقل لقمان لتعليم ابنه أعمدة هذا الدين، بعدما علَّمه أسس التربية الإسلامية، فأول هذه الأعمدة العبادة الصحيحة، وتتمثل في إقامة الصلاة، فالصلاة هي الصلة بين العبد وربه، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَمِدَنِي عَبْدِي وَإِذَا قَالَ (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي وَإِذَا قَالَ (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) قَالَ مَجَّدَنِي عَبْدِي وَقَالَ مَرَّةً

---

1 ) رواه الحاكم في المستدرك ج3 ص 470 رقم 5757 وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة ج9 ص 37 رقم 3257

2 ) رواه البخاري ج1 ص 87 رقم 48

فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي فَإِذَا قَالَ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قَالَ هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) قَالَ هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ)[1].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما أول تأثير لإقامة الصلاة، ذلك أن العبد إذا أصلح ما بينه وبين ربه، فإن ذلك يستتبع قيامه بإصلاح ما بينه وبين الناس، وأول شيء يفعله في هذا الأمر، هو أن يكون آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، بذلك يكون ابنه مصلحًا في المجتمع، ومؤثرًا فيه تأثيرًا إيجابيًّا، بذلك يعلم ابنه أن الإسلام ليس مجرد قناعات فردية متجردة عن التأثير الاجتماعي، بل هو دين يؤثر في المجتمع بخير، ولا يكون المسلم مسلمًا ما لم يفعل ذلك، ولابد أن يكون له دور فعال في المجتمع، ولو بالقول، إن لم يكن مُمَكنًا، وليس له ولاية على غيره، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)[2].

والنتيجة الحتمية والملازمة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو الإيذاء في سبيل الله، فشأن المصلحين دائمًا أن يُحاربوا من المفسدين، ولذلك وصاه بالصبر على ما أصابه، وإن لم يكن بعدُ قد أصابه، ولكنه وصاه بصيغة الماضي وكأنه أصابه فعلًا، ليعلم أن الإيذاء لن يتأخر عليه كثيرًا، بل إنه ملازم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيَّن له ثواب هذه الفضيلة، بأن ذلك من عزم

---

1 ) رواه مسلم ج2 ص 352 رقم 598.

2 ) رواه مسلم ج1 ص 167 رقم 70.

الأمور؛ قال تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران: 186].

قوله: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ): ثم تطرَّق لقمان إلى ما يحبط الأعمال الصالحة، وأول خطر على القلب هو امتعاط الناس والتحقير منهم، والفرح والمرح بغير الحق، قال الإمام البقاعي (والصعر: الميل، وأصله: داء يصيب البعير يلوي منه عنقه)[1]، قال الشنقيطي: (المتكبّر يُميل وجهه عن الناس، متكبرًا عليهم، معرضًا عنهم)[2].

فالواجب على المسلم أن يُقبل بوجهه على الناس، كما وصى النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: (إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن ليسعهم منكم بسطُ الوجه وحسن الخُلق)[3]، قال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: 88]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، ألا أدلكم على ما تحابون به؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أفشوا السلام بينكم)[4].

فمن السنة الاستماع للناس في كل ما يحكون، ولا سيما مشاكلهم، حتى وإن لم يقدر على حلِّها، وإن صغرت عن أن يهتم بها أحدٌ، فإنك تجد النبي صلى الله عليه وسلم يهتم لذلك ببِشر وبشاشة، فعَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مُنْذُ أَسْلَمْتُ وَلَا

---

1 ) الإمام البقاعي: نظم الدرر ج6 ص 351.

2 ) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج6 ص 180.

3 ) رواه الحاكم في المستدرك ج1 ص 212 رقم 428.

4 ) رواه الأدب المفرد ج1 ص 340 رقم 980، وصحَّحه الألباني ورواه مسلم ج1 ص 180 رقم 81.

رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي وَلَقَدْ شَكَوْتُ إِلَيْهِ إِنِّي لَا أَثْبُتُ عَلَى الْخَيْلِ فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي وَقَالَ اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا)[1]، وهذا من تطييب الخاطر.

ومن السنة مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم الناسَ في الأعمال البسيطة، حتى وإن كان في مركز القيادة، فعَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَهُوَ يَنْقُلُ التُّرَابَ حَتَّى وَارَى التُّرَابُ شَعَرَ صَدْرِهِ وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ الشَّعَرِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ بِرَجَزِ عَبْدِ اللَّهِ اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا)[2]، قال ابن الجوزي: (فأحب أن يأخذ نصيبًا من التعب في طاعة الله سبحانه)[3].

قوله: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا)؛ أي: لا تُبدِ السرور بنعمة الله بإفراطٍ فتكسر قلب من حُرم من تلك النعمة؛ قال ابن عاشور (المرح): (فرطُ النشاط مِن فرحٍ وازدهاء، ويظهر ذلك في المشي تبخترًا واختيالًا)[4]، قال ابن جزي: (المرح هو إفراط السرور بالدنيا)[5]، واستشهد بقوله {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} [الإسراء: 37].

---

1 ) رواه البخاري ج10 ص 238 رقم 2809.

2 ) رواه البخاري ج10 ص 236 رقم 2808.

3 ) كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 457.

4 ) التحرير والتنوير ج21 ص 110.

5 ) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 894.

قال عبدالله بن المبارك: (رأس التواضع أن تضَع نفسك عند مَن هو دونك في نعمة الدنيا؛ حتى تعلِّمه أن ليس لك بدنياك عليه فضلٌ، وأن ترفَع نفسك عمن هو فوقك في نعمة الدنيا؛ حتى تعلِّمه أنه ليس له بدنياه عليك فضلٌ)[1].

قوله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ): فمن السنة التبسُّم والبشاشة في وجوه الناس، وعدم التكلف أو التفاخر والتكبر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تَلقى أخاك بوجه طلقٍ، وأن تُفرغ من دلوك في إناء أخيك)[2]، أما العبس في وجوه الناس، فذلك من التكبر والتعاظم والبطر، والتفاخر والخُيلاء على عباد الله، وتلك التصرفات يُبغضها الله تعالى، فمن أعطى النعم قادرٌ على أن يَسلُبَها منه؛ قال ابن القيم: (إن الناس يَنفرون من الكثيف ولو بلغ في الدين ما بلغ ... فهذه الطريق تكسو العبد حلاوة ولطافة وظرفًا، فترى الصادق فيها من أحلى الناس وألطفهم وأظرفهم، قد زالت عنه ثقالة النفس وكُدورة الطبع، وصار رُوحانيًّا سمائيًّا بعد أن كان حيوانيًّا أرضيًّا، فتراه أكرم الناس عشرةً وأليَنهم عريكةً، وألطفهم قلبًا ورُوحًا، وهذه خاصة المحبة، فإنها تلطِّف وتظرِّف وتنظِّف، ومن ظرف أهل هذه الطبقة ألا يَظهر أحدهم على جليسه بحال ولا مقامٍ، ولا يواجهه إذا لقِيه بالحال، بل بلين الجانب، وخفْض الجناح، وطلاقة الوجه، فيَفرُش له بِساط الأنس ويُجلسه عليه، فهو أحبُّ إليه من الفرش الوثيرة ... وبالجملة فهذه الطريق لا تنافي اللطف والظرف والصلف، بل هي أصلف شيء، لكن ها هنا دقيقة قاطعة، وهي الاسترسال مع هذه الأمور، فإنها أقطع شيء للمريد والسالك، فمن استرسل

---

1 ) (التواضع؛ لابن أبي الدنيا، ص119، رقم: 89)

2 ) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 114 رقم 304 وصححه الألباني: صحيح الأدب المفرد ج1 ص 129

معها قطعته، ومن عاداها بالكلية وَعُرَتْ عليه طريقُ سلوكه، ومن استعان بها أراحته في طريقه، أو أراحت غيره به)[1].

قوله: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ): إشارة إلى الآدب المطلوب في المشي، بحيث يكون يكون على هيئة القصد، لا يميل إلى المرح والتفاخر، ولا إلى الكآبة والحزن، وإنما يمشي الماشي مشي المجد المتواضع، ولذلك امتدح الله المؤمنين في مشيتهم {الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: 63]؛ أي: في تواضع ووقار.

والوقار في المشي والهوان على الأرض، لا ينافيه الإسراع في الخطى، فيُسرع السير حتى يكسب الوقت، ويُكثر من الأعمال الصالحات، ولذلك بوب البخاري بابًا بعنوان: (بَاب مَنْ أَسْرَعَ فِي مَشْيِهِ لِحَاجَةٍ أَوْ قَصْدٍ)، روي عن أبي هريرة قال: (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مَشْيِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، كَأَنَّمَا الْأَرْضُ تُطْوَى لَهُ، إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا، وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ)[2]، وهذا يدل على اللياقة البدنية في المشي، فهو يسرع في المشي غير مكترث لسلامة الرئة والقلب والعضلات، ولا يحصل ذلك لأحدٍ إلا لمن تعوَّد على المشي يوميًّا.

---

1 ) مدارج السالكين ج 3 ص 189.

2 ) رواه أحمد ج18 ص 128 رقم 8586.

قوله: (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ): غض الصوت من شِيَم الحكماء، فلا يرتفع فوق القدر الذي يحتاج إليه المستمع، لِما في ذلك من سوء الأدب للمخاطب وإزعاج لغيره، قال العلماء: (من رفع صوته على غيره، علِم كلُّ عاقل أنه قلة احترام له)[1].

فإن ارتفع الصوت عن قدر الحاجة، فالآية تُشَبِّه صوته – أي من لم يلتزم بآدب الإسلام – بصوت الحمير، أي بنهيق الحمار، فما أفظع هيئته، وما بشاعة صوته، وما أزعج صوته، ولا سيما أن الحمير تنهق؛ أي تفعل ذلك لبشاعة ما ترى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم نهاق الحمير من الليل، فإنها رأت شيطانًا، فتعوَّذوا بالله من الشيطان)[2].

1 ) كتاب الآداب ج1 ص 126 لفؤاد بن عبد العزيز الشلهوب

2 ) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 423 رقم 1236، وصحَّحه الألباني، ورواه مسلم ج13 ص 262، رقم 4908.

## المحور الرابع: التربية على مفهوم الاستخلاف والاستسلام لله والاستمساك بالعروة الوثقى، والتخلي عن الجدال بالباطل والاتباع الأعمى:

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (20) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (21) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [لقمان: 20 - 22].

(إسباغ الله نعمه) بين المجادلين فيها بغير علم والمسلِّمين بها بإحسان:

قوله: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)؛ أي سخَّر لهم ما في السموات من نجوم يستضيؤون بها، وما يخلق فيها من سُحب، وأنزل من مطر وثلج وبردٍ، وجعل السماء لهم سقفًا محفوظًا، وسخر لهم ما في الأرض، فجعل فيها الجبال قرارًا، وجعل فيها أنهارًا وأشجارًا وزروعًا وثمارًا)[1].

وهذا التسخير لوظيفة؛ أي: بعدما يتربى الجيل المسلم على العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة والعبادة الصحيحة، فإنه يكون مؤهلًا لمهمة الخلافة في الأرض، وعليه لابد أن يتربى بعد ذلك على مفهوم هذه الخلافة، ويضطلع بمسؤولياتها، وليعلم أن الكون مسخر للإنسان لأجل ذلك؛ أي: مذلل له بطبعه، فهو في طوعه، ومهيَّأ له ليكون مستقرًّا له، كل ذلك ليضطلع بمسؤولية الاستخلاف في هذا الكون بما ميَّزه الله من نعمة العقل؛ ليتعرف على الله سبحانه ويعبده، ويَعمُر

1 ) مختصر ما ذكره ابن كثير في تفسيره ج6 ص 347

هذا الكون بما حباه الله من نعمٍ؛ ليبدع ويعمر، فهذه هي صلاة الاستسقاء – على سبيل المثال – يصليها المسلم إذا ما أجدب المطر؛ لينزل المطر بإذن الله، وهكذا يصير هذا الكون طوعًا للإنسان، ومسخرًا له بمجرد أن يدعوَ ربَّه ومَطعمه حلال ومشربه حلال، وهو موقن بالإجابة.

وهكذا نَفهَم أن الكون مسخر للإنسان متى كان هو مطيع لله، ولابد أن يتربى الجيل المسلم على هذا المفهوم، فإذا خرج عن طوع الله خرج الكون عن طوعه، ولذلك جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا)[1]، فالمطر كناية عن الرزق؛ لأنه سببه، فهو مجاز مرسل علاقته السببية.

قوله: (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً): لفظ (أسبغ) يفيد الشمول، فنعمُ الله تحيط بالإنسان وتفيض عن حاجته، ويشير إلى نعمة الإسلام، فهي الرداء السابغ على الإنسان؛ قال أبو السعود (نِعمةَ الإسلام عنوانُ النعم كلِّها، فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها)[2].

ولفظ (عليكم) (يشعر بتأكيد شمول هذه النعم وتمكُّنها) [3]، قال السعدي: أي (عمَّكم وغمركم بوافر نعمه – ظاهرة وباطنة – التي نعلم بها، والتي تخفى علينا، نِعمِ الدنيا ونِعمِ الدين،

---

1 ) رواه ابن ماجه ج 12 ص 25 رقم 4009 وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج2 ص 370 رقم 3246

2 ) تفسير أبي السعود ج1 ص 15.

3 ) أ.د عويض بن حمود العطوي أستاذ البلاغة بجامعة تبوك:

https://www.youtube.com/watch?v=tB4B8saYD30

حصول المنافع، ودفع المضار، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة المنعم والخضوع له، وصرفها في الاستعانة على طاعته، وألا يستعان بشيءٍ منها على معصيته)[1].

لكن شمل هذا الامتنان جميعَ النعم، لذكر التقابل بين (الظاهرة والباطنة)؛ أي: (الحسية والمعنوية)، فجميع ما في السماوات والأرض قد سُخِّر لهذا الإنسان، وهو شامل لأجرام السماوات والأرض، وما أودع فيهما من الشمس والقمر والكواكب، والثوابت والسيارات، والجبال والبحار والأنهار، وأنواع الحيوانات، وأصناف الأشجار والثمار، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو من مصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراتهم للانتفاع والاستمتاع والاعتبار)[2].

ففي قوله: (نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)، جاء في كنز العمال: "أما الظاهرة فالإسلام وما حسُن من خلقك، وما أسبَغ عليك من الرزق، وأما الباطنة، فما ستر عليك من عيوبك، إن الله عز وجل يقول: إني جعلت للمؤمن ثُلث ماله بعد وفاته، أكفِّر بها خطاياه بعد موته، وجعلت المؤمنين والمؤمنات يستغفرون له، وسترت عليه عيوبه التي لو علِم بها أهله دون عبادي لنبَذوه)[3].

قال القشيري في قوله: (نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً): تكلموا فيه فأكثروا، فالظاهرةُ وجودُ النعمة، والباطنةُ شهودُ المنعِم، والظاهرةُ الدنيويةُ، والباطنةُ الدينية، والظاهرة حُسْنُ الخَلْق، والباطنة حُسْنُ الخُلُق، الظاهرةُ نَفْس بلا زلَّة، والباطنةُ قلبٌ بلا غفلة، الظاهرةُ العطاء، والباطنة الرضاء، الظاهرة في الأموال ونمائها، والباطنة في الأحوال وصفائها، الظاهرةُ النعمةُ، والباطنةُ العصمةُ، الظاهرةُ توفيقُ

---

1 ) تفسير السعدي.

2 ) د سعيد بن علي بن وهف القحطاني: نور التوحيد وظلمات الشرك ج1 ص 23.

3 ) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ج2 ص 34 رقم 3022.

الطاعات، والباطنةُ قبولُها، الظاهرة تسوية الخَلْقِ، والباطنة تصفية الخُلُق، الظاهرة صحبة الصالحين، والباطن حِفْظُ حُرْمَتِهم، الظاهرةُ الزهدُ في الدنيا، والباطنةُ الاكتفاء بالمولى من الدنيا والعقبى، الظهارة الزهد، والباطنةُ الوَجْدُ، الظاهرة توفيق المجاهدة والباطنة تحقيق المشاهدة، الظاهرة وظائف النَّفْس، والباطنة لطائف القلب، الظاهرةُ اشتغالُكَ بنَفْسِك عن الخَلْق، والباطنةُ اشتغالُك بربّك عن نَفْسِك، الظاهرة طَلَبُهُ، الباطنةُ وجوده، الظاهرةُ أَنْ تَصِل إليه، الباطنة أن تبقى معه.

والتقابل بين النعم الظاهرة والباطنة يُفيد أن النعمة قد تكون باطنة، وهي في الظاهر عكس ذلك، كما لو جاءت في صورة بلاء، وهي في حقيقتها نعمة من أعظم النعم، يقول النابلسي: (الحزن خلاق، فالمصيبة قد تكون نعمة الله الباطنة، ولو تأملت في أرباب المساجد لوجدت أن كثير منهم كان أول عهدهم بالمسجد بسبب مصيبة أصابته، فلجأ إلى الله ليفرّج عنه همه، واستمر على العهد بعد ذلك)[1].

قوله: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ): الانتقال من الحديث عن النعم، وفضل الله السابغ على الإنسان، إلى تكرار ذكر الإنسان وهو يجادل ويعاند كما في أول السورة؛ يعني كما قال ابن كثير: (ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم)، بل منهم من يجادل في الله، أي: (في توحيده وإرسال الرسل، ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح؛ أي: مبين مضيء)[2].

---

1 ) https://www.youtube.com/watch?v=hv2Y9oHwRAE

2 ) تفسير ابن كثير ج6 ص 347

والجدال بالباطل يدل على سوء الخلق، والكبر، فالكبر داء في النفس من مظاهره الجدال بالباطل؛ يقول سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [غافر:56]، فالجدال من أذم الصفات وأهلكها، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)[1].

والجدال نابع من شهوة الكلام، فعن كعب بن مالك: (مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي النَّارِ)[2]، وفي رواية (مَنْ تعلَّمَ العلْمَ ليُباهِيَ بِهِ العلماءَ، أوْ يُمارِيَ بِهِ السفهاءَ، أوْ يصرِفَ بِهِ وجوهَ الناسِ إليه، أدخَلَهُ اللهُ جهنَّمَ)[3].

لكن شتان بين الجدال المذموم وحرية الرأي والتعبير المطلوبة، فالمناقشة لإظهار الحق ليست من الجدال بالباطل، ولذلك قال الشافعي رحمه الله: "ما ناقشتُ أحدًا في مسألة إلا وتمنيت أن يُظهِرَ الله الحقَّ على لسانه"، أما الجدال المحمود فهو الذي يتسم بالحكمة والنقاش بالحسنى، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:125]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ (العنكبوت 46)، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ [البقرة: 258].

---

1 ) رواه ابن ماجه ج1 ص 55 رقم 47 وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج 1 ص 14 رقم 45

2 ) رواه ابن ماجه ج1 ص 295 رقم 249 وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج1 ص 48 رقم 205

3 ) رواه ابن ماجه ج1 ص 303 رقم 256 وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج1 ص 48 رقم 209

والنبي صلى الله عليه وسلم كان يترك المراء وإن كان محقًّا؛ أي: إذا ترائ له أن خصمه يجادل بالباطل وبغير علمٍ، ويُصر على ذلك، فإنه يتركه وشأنه، ولا يتمادى معه في النقاش حول تلك المسألة التي يعاند فيها بعد أن أوضَح له الحق؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ)[1].

وعلي المربي أن يسعى جاهدًا إلى تخليص أبنائه من هذه الصفة في صغرهم؛ لأن الجدال بغير علم نوعٍ من الكبر الذي هو بطر الحق، فإذا أدَّبهم على التواضع للناس لم يصيروا مستكبرين، وتجدهم بعد ذلك يتحلون بالتواضع والصبر، ولا يجادلون بالباطل وبدون علم.

قوله: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ): فعلى المربي أن يخلص أبناءه من عادة اتباعه هو وتقليده تقليدًا أعمى، بل عليه أن يعودهم أنه وإن كان مثالًا لهم وقدوة، لكنه ليس معصوم من الخطأ، فالخطأ منه وارد، ولذلك عليهم قبل أن يتَّبعوه أن يتحقق من أنه لم يتنكب جادة الصواب، وهذا يتطلب تأهيلًا تربويًّا وعلميًّا وتثقيفيًّا ليستطيع الأبناء معرفة ذلك.

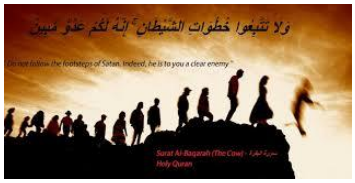


وفي ذلك احترازٌ من تكرار الأخطاء التربوية وانتقالها بتمامها من جيل لجيل آخر، بسبب تعود الابناء تقليد الآباء في كل شيء، واتباعهم دون تعقُّل لما يفعلون؛ قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا

1 ) رواه أبو داود ج12 ص 422 رقم 4167 وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن أبي داود ج10 ص 300

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة/170)، أي: إنهم يتبعون آباءهم حتى إذا وقعوا في الرذيلة، وقعوا مثلهم فيها، حتى وإن كان أباهم في صورة شيطان يدعوهم إلى معصية الله صراحة، وإلى عذاب جهنم، فإنهم يتبعونه دون أن يعقِلوا؛ فعن عبد الله بن مسعود قال: (أَلَا لا يقلِّدنَّ أحدكم دينه رجلًا، إن آمن: آمن، وإن كفر: كفر، وإن كنتم لابدَّ مقتدين، فاقتدوا بالميت؛ فإن الحي لا يُؤمن عليه الفتنة)[1].

وعنه كذلك؛ أي: عبد الله قال: (لا يكون أحدكم إمعة قالوا: وما الامعة يا أبا عبد الرحمن؟ قال: يقول: إنما أنا مع الناس إن اهتدوا اهتديتُ، وإن ضلوا ضللتُ، ألا ليوطنَّ أحدكم نفسه على أن كفر الناس ألا يكفر)[2].

قال بعض السلف: (اتّبع طريق الهدى، ولا يضرك قلَة السالكين، وإيَّاك وطرق الضلالة، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين)، وقيل: (عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين).

قوله: (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ): يعني من أخلَص قصده ووجهته في كل عملٍ يعمله لله، فلا يبتغي منه غيرَ رضا مولاه، فأحسن العمل ليتقبَّله الله منه، فأتى بأفضل القربات لله سبحانه، فهذا قد استمسك بالدين كله

---

1 ) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج9 ص 152 رقم 8783، ورجاله رجال الصحيح انظر مجمع الزوائد – وهو مخرج عند اللالكائي: اعتقاد أهل السنة ج1 ص 93

2 ) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج9 ص 152 رقم 8784 قال الهيثمي في مجمع الزوائد ج1 ص 433 رقم851 (رواه الطبراني في الكبير وفيه المسعودي وقد اختلط وبقية رجاله ثقات).

من موضع يُعينه على التوفيق والثبات على الحق حتى الممات، فلا تضرُّه فتنة، فينال بذلك الأجر والثواب عند لقاء الله، فيجازيه على إحسان عمله خيرًا.

ونظير هذه الآية قوله سبحانه: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [النساء: 125]، وَقَولَه: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 112].

قال ابن تيمية: (فَإِنَّ إسْلَامَ الْوَجْهِ لِلَّهِ يَتَضَمَّنُ إخْلَاصَ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَالْإِحْسَانُ هُوَ إحْسَانُ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَهُوَ فِعْلُ مَا أَمَرَ بِهِ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الكهف: 30]، فَإِنَّ الْإِسَاءَةَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ تَتَضَمَّنُ الِاسْتِهَانَةَ بِالْأَمْرِ بِهِ وَالِاسْتِهَانَةَ بِنَفْسِ الْعَمَلِ وَالِاسْتِهَانَةَ بِمَا وَعَدَهُ اللَّهُ مِنْ الثَّوَابِ، فَإِذَا أَخْلَصَ الْعَبْدُ دِينَهُ لِلَّهِ وَأَحْسَنَ الْعَمَلَ لَهُ كَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَكَانَ مِنْ الَّذِينَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[1].

قوله: (..وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)، قال الرازي: فقوله: (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَه إِلَى اللَّهِ) إشارة إلى الإيمان، وقوله: (وَهُوَ مُحْسِنٌ) إشارة إلى العمل الصالح، فتكون الآية في معنى قوله تعالى: {مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [الكهف: 88][2].

قال ابن تيمية: (وقد فُسِّر إسلام الوجه لله بما يتضمن إخلاص قصد العبد لله بالعبادة له وحده، وهو محسنٌ بالعمل الصالح المشروع المأمور به)[3]، وقال في قَوْلُهُ: (أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)، (فَهُوَ إخْلَاصُ الدِّينِ لِلَّهِ وَحْدَهُ)[4].

---

1 ) مجموع الفتاوى ج18 ص 251.

2 ) تفسير الرازي ج12 ص 278.

واستشهد بقول عُمَر بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصًا وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا)[1].

واستشهد كذلك بقول الفضيل بْنُ عِيَاضٍ فِي قوله: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [هود: 7]، قَالَ: (أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ)[2]، قِيلَ: يَا أَبَا عَلِيٍّ (مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ) قَالَ: (إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَ"الْخَالِصُ" أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ،وَ"الصَّوَابُ" أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ، فَمَنْ عَمِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ – كَأَهْلِ الرِّيَاءِ – لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ ذَلِكَ.

قال الإمام ابن تيمية في شرحه لقوله: "أخلصه"؛ أي (كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، وفي

---

3 ) اقتضاء الصراط ج1 ص 451.

4 ) الفتاوى الكبرى ج5 ص 174.

1 ) هذا الأثر أخرجه الإمام أحمد في الزهد موقوفًا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ص 147 رقم 617، تنزيل مكتبة نور تحقيق الشيخ محمد أحمد عيسى – الناشر: دار الغد الجديد المنصورة – الطبعة الأولى 2005، ولفظه: عن الحسن، أن عمر كان يقول: «اللهم اجعل عملي صالحًا، واجعله لك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»، وأخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان، وفيه زيادة، ولفظه: (اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لك خالصًا، ولا تجعل لغيرك منه شيئًا، اللهم إني أعوذ بك من ظلم خلقك إياي، وأسألك العافية من ظلمي إياهم)، لكن فيه انقطاع؛ لأن الحسن البصري لم يسمع من عمر بن الخطاب؛ انظر منصة محمد السادس في الحديث https://hadithm6.ma/question/1657.html

2 ) حلية الأولياء ج8 ص 95 ناقلًا عن سفيان بن عيينة – معارج القبول ج2 ص 442 – دقائق التفسير لابن تيمية ج2 ص 170 – جامع العلوم والحكم لابن رجب ص13.

قوله "وأصوبه"؛ أي كما فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، وَقَالَ النبي صلى الله عليه وسلم: «لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ صَلاَةً بِغَيْرِ طُهُورٍ وَلاَ صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ»، وَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ صَلاَةَ حَائِضٍ إِلاَّ بِخِمَارٍ»، وَقَالَ فِي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»)[1].

قوله: (..وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ)؛ أي لله يعني (يخلص دينه لله[2]، ويفوض أمره إليه)[3]، قال ابن عجيبة (المعنى: أسلم وجهه في الباطن، وهو محسن بالعمل في الظاهر)[4]، قال التستري (من يخلص دينه لله عزَّ وجلَّ، ويحسن أدب الإخلاص).

إذًا إسلام الوجه لله يعني إخلاص النية لله في كل عمل، وهذا يتضمن عدة صفات، فمن صفات المخلص التفويض والتسليم لله، ولذلك قال الألوسي: (التسليم يعني التفويض، ومقصود بالوجه الذات، والكلام كناية عن تسليم الأمور جميعها إليه تعالى، والإقبال التام عليه عز وجل، وقد يعدى الإسلام قصدًا لمعنى الإخلاص)[5]، قال القرطبي في قوله تعالى: {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ} [لقمان: 22]؛ أي يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى.

وعن الفضيل بن عياض يقول قيل لسفيان بن عيينة: (ويل لك إن لم يعفُ عنك، إذا كنت تزعُم أنك تعرِفه وأنت تعمل لغيره، وسمعته يقول: المتوكل الواثق بالله لا يتهم ربَّه، ولا يستشير ولي

---

1 ) أسباب رفع العقوبة لشيخ الإسلام ص 35، ومجموع الفتاوى ج7 ص 496.

2 ) تفسير التستري ج1 ص 26.

3 ) اللباب في علوم الكتاب ج13 ص 20.

4 ) البحر المديد ج5 ص 38.

5 ) تفسير الألوسي ج15 ص 451.

الله، ولا يخاف خِذلانه ولا يشكوه، وسمعته يقول: كان يقال لا يزال العبد بخير ما إذا قال: قال لله، وإذا عمل عمِل لله، وسمعته يقول في قوله: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [هود: 7]، قال: أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة، وسمعته يقول: ترك العمل من أجل الناس هو الرياء، والعمل من أجل الناس هو الشرك، وسمعته يقول: من واقى خمسًا فقد وُقِيَ شرَّ الدنيا والآخرة: العجب والرياء والكبر والإزراء والشهوة)[1].

وعبَّر بلفظ (الوجه) كناية عن الإذعان لأمر الله سبحانه بالكلية، والرضاء بقضائه، وضد التسليم الإعراض، وضد الرضا السخط، فجاء التعبير بالوجه؛ لأنه هو أول مظاهر التسليم أو الإعراض، كمن يصعِّر خده للناس تكبرًا وإعراضًا عنهم، ومن يقبل على الناس بوجهه ترحيبًا.

قوله: (..وَهُوَ مُحْسِنٌ..): جملة حال لمن أتى شرط الإخلاص، فحاله الإحسان في العمل؛ لأن المخلص يُحسن العمل، ولا شك، فلا يأتي إلا أصوبه وأحسنه، بينما الذي لا يحسن العمل، فإنه لابد أن نيته قد داخلها شيءٌ أفسد العمل كالرياء أو السمعة ... إلخ، ذلك أن إحسان العمل هو مناط الابتلاء؛ كما في قوله تَعَالَى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) [الملك: 2].

قال القرطبي في قوله تعالى: (وَهُوَ مُحْسِنٌ)؛ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع؛ نظيره {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [طه: 112].

---

1 ) حلية الأولياء ج8 ص 95.

يقول الشيخ عبد العزيز الراجحي: (والمحسن في الشرع هو الذي بلغ درجة الإحسان، والإحسان فسَّره النبي صلى الله عليه وسلم عند سؤال جبريل عليه السلام في حديث عمر رضي الله عنه حيث قال: (الإِحْسَانَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ )، وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) [النحل:90]، قيل: أَراد بالإحسان الإِخْلاص، وهو شرطٌ في صحةِ الإيمان والإسلام معًا، وقيل: أَراد بالإحسان الإشارةَ إلى المراقبة وحُسْن الطاعة، فإِن مَنْ راقَب اللَّهَ أَحسَن عمَله، والمعنى يشمل الاثنين معًا)[1].

قوله (..فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى..)؛ أي: (تمسَّك واعتصَم بالعقد الوثيق المحكم في الدين)، قال ابن كثير: (أي: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب)[2]، قال ابن كثير: (شبه ذلك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم، فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية، وربطها قوي شديد، ولهذا قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 256].

قال مجاهد: (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)؛ يعني: الإيمان، وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعني لا إله إلا الله، وعن أنس بن مالك: (بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى): القرآن،

---

1 ) أسماء الله الحسنى ج25 ص 4.

2 ) تفسير ابن كثير ج1 ص 683.

وعن سالم بن أبي الجعد قال: هو الحب في الله والبغض في الله[1]، قال ابن كثير: "وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافي بينها"[2].

ففي الآية تشبيه تمثيلي، قال الألوسي: (تعلق أتَمَّ تعلُّق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب، وهذا تشبيه تمثيلي مركب؛ حيث شبَّه حال المتوكل على الله عز وجل المفوِّض إليه أموره كلها، المحسن في أعماله بمن ترقى في جبل شاهق أو تدلَّى منه، فتمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه)[3].

فالعروة هي الثقب في الثوب الذي يدخل فيه الزر، وهي في الحبل العقدة التي تنشئ دائرة يعلق منها الشيء، أو يستمسك بها المستمسك، من هنا قيل: لا يصعد الجبل من لا يثق في الحبل.

قال الثعلبي: وفائدة هذا التشبيه (أي: اعتصم بالطريق الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه)[4]؛ أي: إن سبب تشبيه الدين – وهو الإسلام بالعروة الوثقى – بيان أن العقيدة الإسلامية لا تقبل القسمة أو التجزئة، فمن استمسك بالله وفوَّض أمره له، فقد عُصِمَ، فحبلُ الله متين وعروته وُثقى

---

1 ) تفسير ابن أبي حاتم" (496/2)

2 ) تفسير القرآن العظيم" (684/1).

3 ) تفسير الألوسي ج15 ص451.

4 ) تفسير الثعلبي ج1 ص 1766

لا تنحل، ولذلك قال تعالى: {لَا انْفِصَامَ لَهَا} [البقرة: 256]؛ أي: إنها دائمة وليست مؤقتة، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وَلَنْ تَزَالَ مُتَمَسِّكًا بِهَا حَتَّى تَمُوتَ)، ولذلك قال الطبري: (فقد تمسَّك بالطرف الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه مَن تمسَّك به، وهذا مثل، وإنما يعني بذلك: أنه قد تمسك من رضا الله بإسلامه وجهه إليه وهو مُحسن، ما لا يخاف معه عذاب الله يوم القيامة)[1].

فالحبل هو الإسلام، فما أنزله الله في كتابه وسنة نبيه فهو حبله المتين، والعروة الوثقى هي العقيدة الإسلامية الصحيحة (التوحيد)، والقلب محل هذه العقيدة وتلك الصلة بالله، ولذلك قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ)[2]، فجعل رأس الأمر الإسلام، فهو كما سبق إخلاص النية وصلاح العمل، وعموده الصلاة، فتلك هي العروة الوثقى، وذلك حين تؤدي الصلاة معناه من الاستعانة بالله وتفويض الأمر له، وذورة سنامه الجهاد، فذلك هو إحسان العمل، فأحسن الأعمال عند الله الجهاد في سبيل الله، وذلك بدء من مجاهدة النفس حتى مجاهدة العدو.

وفي تفسير النبي صلى الله عليه وسلم "للعروة الوثقى"، ورد حديث عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ فَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى وَجْهِهِ أَثَرُ الْخُشُوعِ فَقَالُوا هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ تَجَوَّزَ فِيهِمَا ثُمَّ خَرَجَ وَتَبِعْتُهُ فَقُلْتُ إِنَّكَ حِينَ دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ قَالُوا هَذَا رَجُلٌ

---

1 ) تفسير الطبري ج2 ص 150.

2 ) رواه الترمذي ج9 ص 202 رقم 2541، وصححه الألباني: صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 43.

مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَالَ وَاللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ وَسَأُحَدِّثُكَ لِمَ ذَاكَ رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ وَرَأَيْتُ كَأَنِّي فِي رَوْضَةٍ ذَكَرَ مِنْ سَعَتِهَا وَخُضْرَتِهَا وَسْطَهَا عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ أَسْفَلُهُ فِي الْأَرْضِ وَأَعْلَاهُ فِي السَّمَاءِ فِي أَعْلَاهُ عُرْوَةٌ فَقِيلَ لِي ارْقَ قُلْتُ لَا أَسْتَطِيعُ، فَأَتَانِي مِنْصَفٌ فَرَفَعَ ثِيَابِي مِنْ خَلْفِي فَرَقِيتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَاهَا، فَأَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ فَقِيلَ لَهُ اسْتَمْسِكْ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي فَقَصَصْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ تِلْكَ الرَّوْضَةُ الْإِسْلَامُ، وَذَلِكَ الْعَمُودُ عَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَتِلْكَ الْعُرْوَةُ عُرْوَةُ الْوُثْقَى فَأَنْتَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ وَذَاكَ الرَّجُلُ)[1].

وعَنْ خَرَشَةَ بْنِ الْحُرِّ قَالَ كُنْتُ جَالِسًا فِي حَلَقَةٍ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ قَالَ وَفِيهَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ قَالَ فَجَعَلَ يُحَدِّثُهُمْ حَدِيثًا حَسَنًا قَالَ فَلَمَّا قَامَ قَالَ الْقَوْمُ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا قَالَ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَأَتْبَعَنَّهُ فَلَأَعْلَمَنَّ مَكَانَ بَيْتِهِ قَالَ فَتَبِعْتُهُ فَانْطَلَقَ حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ الْمَدِينَةِ ثُمَّ دَخَلَ مَنْزِلَهُ قَالَ فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لِي فَقَالَ مَا حَاجَتُكَ يَا بْنَ أَخِي قَالَ فَقُلْتُ لَهُ سَمِعْتُ الْقَوْمَ يَقُولُونَ لَكَ لَمَّا قُمْتَ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا فَأَعْجَبَنِي أَنْ أَكُونَ مَعَكَ قَالَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَسَأُحَدِّثُكَ مِمَّ قَالُوا ذَاكَ إِنِّي بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلٌ فَقَالَ لِي قُمْ فَأَخَذَ بِيَدِي فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ قَالَ فَإِذَا أَنَا بِجَوَادَّ عَنْ شِمَالِي قَالَ فَأَخَذْتُ لِآخُذَ فِيهَا فَقَالَ لِي لَا تَأْخُذْ فِيهَا فَإِنَّهَا طُرُقُ أَصْحَابِ الشِّمَالِ قَالَ فَإِذَا جَوَادُّ مَنْهَجٌ عَلَى يَمِينِي فَقَالَ لِي خُذْ هَاهُنَا فَأَتَى بِي جَبَلًا فَقَالَ لِيَ اصْعَدْ قَالَ فَجَعَلْتُ إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَصْعَدَ خَرَرْتُ عَلَى اسْتِي قَالَ حَتَّى فَعَلْتُ ذَلِكَ مِرَارًا قَالَ ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى أَتَى بِي عَمُودًا رَأْسُهُ

1 ) رواه البخاري ج12 ص181رقم 3529.

فِي السَّمَاءِ وَأَسْفَلُهُ فِي الْأَرْضِ فِي أَعْلَاهُ حَلْقَةٌ فَقَالَ لِيَ اصْعَدْ فَوْقَ هَذَا قَالَ قُلْتُ كَيْفَ أَصْعَدُ هَذَا وَرَأْسُهُ فِي السَّمَاءِ قَالَ فَأَخَذَ بِيَدِي فَزَجَلَ بِي قَالَ فَإِذَا أَنَا مُتَعَلِّقٌ بِالْحَلْقَةِ قَالَ ثُمَّ ضَرَبَ الْعَمُودَ فَخَرَّ قَالَ وَبَقِيتُ مُتَعَلِّقًا بِالْحَلْقَةِ حَتَّى أَصْبَحْتُ قَالَ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ فَقَالَ أَمَّا الطُّرُقُ الَّتِي رَأَيْتَ عَنْ يَسَارِكَ فَهِيَ طُرُقُ أَصْحَابِ الشِّمَالِ قَالَ وَأَمَّا الطُّرُقُ الَّتِي رَأَيْتَ عَنْ يَمِينِكَ فَهِيَ طُرُقُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا الْجَبَلُ فَهُوَ مَنْزِلُ الشُّهَدَاءِ وَلَنْ تَنَالَهُ وَأَمَّا الْعَمُودُ فَهُوَ عَمُودُ الْإِسْلَامِ وَأَمَّا الْعُرْوَةُ فَهِيَ عُرْوَةُ الْإِسْلَامِ، وَلَنْ تَزَالَ مُتَمَسِّكًا بِهَا حَتَّى تَمُوتَ)[1].

مما تقدم نفهَم أن "الإسلام والإحسان تضمَّنا" عدة معاني في هذا السياق، والإخلاص في القصد والعمل، منها الرضا بقضاء الله فيما مضى، وتفويض الأمر لله فيما يستقبل، فأما "تفويض الأمر لله" فيما يستقبل، فيكون بالاستخارة، ذلك أن الإحسان لا ينبع إلا من الإخلاص، ومن أخلص وجهه لله لا يعمل عملًا إلا إذا استيقَن أن الله يرضاه ويحبه، والله سبحانه من رحمته أن يرضى من عمل العبد ما هو صواب، وما هو خالصٌ لوجهه الكريم، لكن العمل فيه الصواب والأصوب، وفيه الحسن والأحسن، ومن هنا شرعت الاستخارة، بأن يستخير العبد ربه في كل عمل يريد أن يُقدم عليه، وهو لا يعرف هل فيه مرضاته سبحانه أم أن في غيره مرضاته، وإذا كان فيه مرضاته، فهل في غيره ما يدل على الرضا الكامل، فالذي يخلص عمله لله لا يَهُمُّ بأمر إلا بعد استخارة رب العالمين؛ ليعلم منه سبحانه أصوب الصواب، وأحسن العمل، فذلك هو من تمسَّك بالعروة الوثقى، فيجعل الله قصده في كل عمل، ويستخيره فيما يقدم عليه من أمر، فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَالسُّورَةِ مِنْ

1 ) رواه مسلم ج12 ص 276 رقم 4538

الْقُرْآنِ إِذَا هَمَّ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ)[1].

وهكذا نلحَظ أهمية ترسيخ تلك المفاهيم في قلوب العباد، وياحبذا لو تربى عليها النشء المسلم، وهو ما نلمسه من تعليم النبي صلى الله عليه وسلم الاستخارة للشباب خصوصًا، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنْ الْقُرْآنِ)[2]، وهكذا نلحظ اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بتربية النشء المسلم على الاستخارة، فهذه الصلاة تلخِّص معنى هذه الآية التي نقف عليها، قيل: إن جابر بن عبد الله ولد عام 16 قبل الهجرة، يعني أن أول عهده بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقد نشأ في ريعان شبابه في مدرسة النبي صلى الله عليه وسلم، فكان حري بالنبي صلى الله عليه وسلم أن يربي الشباب على معنى الإخلاص والتوكل، وتفويض الأمر لله[3].

---

1 ) رواه البخاري ج19 ص 480 رقم 5903.

2 ) رواه البخاري ج4 ص 347 رقم 1096.

3 ) قيل أنه لَما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى يثرب، كان جابر من أنصاره، لكنه لم يشهد غزوة بدر ولا غزوة أحد، حيث منعه أبوه من المشاركة فيهما لأجل أن يرعى أخواته التسع، ولكن بعدما قُتل أبوه في أُحد، لم يتخلَّف جابر عن غزوة من غزوات النبي محمد، كما شهد بيعة الرضوان، عام 6 هـ.

قوله: (..وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ): أي إن الذي يُخلص نيته لله، ويُحسن عمله ويستمسك بحبل ربه الموصول إليه، فيلتزم بالصلاة والدعاء والأخذ بالأسباب، فإنه يدرك أن عاقبة أمره لله، فهو سبحانه وحده الذي سوف يجازيه ويُثيبه، ولا يبغي الأجر إلا منه سبحانه، ولذلك قال مجاهد: (فعند الله ثواب ما صنعوا)[1]، قال أبو سراج: (يعني فقد استمسك بالعروة التي توصله إلى الله؛ لأن عاقبةَ كُلِّ شيء إليه)[2].

## المحور الخامس: التدرج التربوي من الكفر حتى الإيمان بالبعث:

قال تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (24) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27) مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [لقمان: 23 - 28].

تنوَّع هذا المقطع في استخدام الوسائل لإيضاح أن التربية على التوحيد تحتاج للصبر واحتساب الأمر لله، والنظر في الحياة الدنيا على أنها قصيرة، فيستهين أمرها، ويعظُم أمرُ الآخرة، وأن الدعوة تتطلب أكثر من مواجهة مع الناس تارةً بتوجيه الأسئلة لهم عن حق الإله عليهم، وما يعتقدونه

1 ) النكت والعيون ج3 ص339 تفسير الماوردي ج4 ص 344.

2 ) اللباب في علوم الكتاب ج13 ص 20.

نحوه، وتارة بالإخبار والإقرار بأن الله مالك السماوات والأرض، وضرب العديد من الأمثلة تارة أخرى للإيضاح وتبسيط ما يَصعُب عليهم تصديقُه من أمور الغيب بالمثال والقياس.

قوله: (وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ): هذه الآية ورد فيها نهي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يَحزن على كفر قومه، فهذه المسألة هي مسألة قضاء وقدر، والحزن لا ينفع، وذلك مثل قوله: (وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) [النمل:70]، وقد أظهر النبي صلى الله عليه وسلم حزنه على قومه وأسفه عليهم؛ كما في قوله صلى الله عليه وسلم (إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَتْ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ)[1]، وليس في ذلك تعارض، فهو كان يتحسر عليهم، ولكن الله نهاه عن ذلك؛ كما في قوله (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) (فاطر: 8)، وقوله: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) (الكهف: 6)، وعلة ذلك كما قال ابن كثير (أن قدر الله نافذ فيهم)[2].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَا عَائِشَةُ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَخَلَقَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَخَلَقَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ)[3]، قال الخطابي: (وقد يحسب كثيرٌ من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد وقهره على ما قدَّره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهَّمونه،وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه وتعالى بما

---

1 ) رواه مسلم ج 11 ص 398 رقم 4234.

2 ) تفسير ابن كثير ج6 ص 347

3 ) رواه النسائي ج7 ص 29 رقم 1921 وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن النسائي ج5 ص 91

يكون من اكتساب العبد، وصدورها عن تقدير منه، وخلق لها خيرها وشرها)[1]، والذي يرجح هذا الفهم هو قوله سبحانه: {فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا}؛ أي: إنه سبحانه خبير بما عمِلوا في الدنيا، ولذلك فإنه يُحاسبهم عليه، ويُلقي عليهم الملامة.

قوله: (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ): ذلك أن كثيرًا من كفار مكة قد أسلم بعد الفتح، والله سبحانه كان عليمًا بما في صدورهم، وأنهم وإن تأخروا عن الإسلام في أول الأمر، لكن قلوبهم سوف تنشرح له فيما بعد، وقد حصل.

كذلك كان هناك من المسلمين من أظهر الكفر في مكة، وأبطن الإسلام، وفاتته الهجرة، فعلوا ذلك تقيةَ قومهم أن يَفتنوهم في دينهم لو أظهروا إسلامهم، فكان الله سبحانه هو وحده العليم بما في صدرهم، وقد كان كثير ممن أخفى إسلامه عن آبائه وقومه من صغار صحابة النبي صلى الله عليه وسلم في العهد المكي؛ حتى لا يفتنوهم في دينهم.

وقد علِق كثيرٌ منهم في مكة حتى بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان من أسباب صلح الحديبية الحفاظ على هؤلاء المسلمين من أن يطأَهم جيش محمد القادم من المدينة حتى يدخلها فاتحًا بالصلح دون قتالٍ؛ كما في قوله: (وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (الفتح: 25).

---

1 ) شرح النووي على مسلم ج1 ص 155

قوله: (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا): ذلك حتى لا يغتر أحدٌ بتقلُّب الذين كفروا في البلاد، وعلو منزلتهم في الدنيا، فمتاعهم قليل إذا ما قورنَ بالآخرة، وذلك مثل قوله: {لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: 196، 197].

وفي قوله: (ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ)؛ أي: نُلجئهم[1]، (والجملة استعارة مكنية فقد شبَّه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه باضطرار المضطر إلى الشيء الذي لا يُقدَر على الانفكاك منه)[2]، قال الألوسي؛ أي (يَثقُل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ، أنهم لشدة ما يكابدون من النار يطلبون البرد، فيُرسل عليهم الزمهرير، فيكون أشد عليهم من اللهب، فيتمنَّون عود اللهب اضطرارًا، فهو اختيار عن اضطرار)[3]، قال الشاعر:

يرون الموت قدامًا وخلفًا ... فيختارون والموت اضطرارُ

ونظيره قوله: (قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [البقرة 126].

فالاضطرار والإلجاء يتضمن شيئًا من الاختيار، فهم في الآخرة حين يقفون للحساب، يطول عليهم هذا اليوم، ويكون عسيرًا، وتدنو الشمس من فوق رؤوسهم، فيتمنون لعسر هذا اليوم الانصرافَ ولو إلى النار، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الكافر ليُلجمه العرق يوم

1 ) الألوسي النيسابوري: الكشف والبيان ج7ص321، ابن كثير ج6 ص 347، القرطبي 75/14.

2 ) إعراب القرآن للدرويش: محيي الدين (1403) هـ.

3 ) تفسير الألوسي ج15 ص 453.

القيامة، فيقول: أرحني ولو إلى النار"[1]، فيظنون أنهم بذلك سوف يستريحون، فيضطرون لطلب العذاب، فإذا ذاقوا النار تَمنوا الموت الذي كانوا يَفِرون منه في الدنيا، لكنهم يوم القيامة لا يدركونه؛ قال تعالى: (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ) (الزخرف 77)، وهكذا تكون أقصى أمانيهم في الآخرة الموت، فما غلظ الحساب حتى يتمنوا الإلقاء في النار، وما غلظ عذاب النار الذي يذوقون حتى يتمنوا الموت؟

قوله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ): دليلٌ على أنهم وهم يكفرون بالرحمن، يُقرون بأنه سبحانه خالق السماوات والأرض، ولكنهم يكفرون به عن جحود وعُتو، رغم أن أنفسهم مستيقنة بأن الله هو الخالق القادر، لكنهم ينكرون عليه أحقيته في الأمر والنهي، ولا يدينون لله بواجب العبودية له، والانقياد له بالسمع والطاعة.

فليس أعجب من مذهب مَن يُقر بالربوبية ويكفر بالألوهية، يعني يُقر أصحاب هذا المذهب أن الله خلقهم، ولكنهم لا يُطيعونه لكفره بأن يكون الرب هو الآمر الناهي، (فالرب معناه الانفراد بالخلق والتدبير، أما الإله فهو المستحق للعبادة المألوه الذي تعظِّمه القلوب، وتخضع له وتعبُده عن رضا ومحبة)[2].

---

1 ) رواه ابن حبان في صحيحه ج16 ص 330 رقم 8335، والطبراني في المعجم الكبير بلفظ (إن الرجل) ج10 ص99 رقم 10103، وقال الألباني: إسناده جيد؛ ضعيف الترغيب والترهيب ج2 ص 220 رقم 2093.

2 ) أسماء الله الحسنى ج8 ص 10.

وهذا حال أهل الكتاب كذلك؛ إذ يقرون بالربوبية لكنهم – وفي ذات الوقت – يُنصِّبون أنفسهم آلهة مع الله، فيقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، والعلاقة بين الأب وابنه ليست علاقة أمر ونهي، وثواب وعقاب، بل هي علاقة محبة، فيجعلون أنفسهم مُشرعين مع الله، أي أندادًا لله، وهكذا يضلون من هذا الباب.

وهكذا يتعلم المسلم وهو يدعو في سبيل الله السبر والتقسيم، بمعنى أنه يقسم المشكلة التي أمامه، ليحدِّدها من بين مشاكل عدة، ولينسب لكل واحد مشكلته، ويسعى لعلاجها وفقًا لقاعدة التفريد الشخصي، وهكذا تعامل نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم مع قريش؛ حيث كانوا يكفرون بالله رغم إقرارهم بربه سبحانه، وقد أخبره الله بذلك ليضع العلاج المناسب للداء العضال.

وفي ذلك دليلٌ على وجوب تعليم الأبناء أصناف الناس، وأنهم ينقسمون إلى المؤمنين والكفار، وأن الكفر مذاهب، ذلك أن لقمان أوصى ابنه بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فكان مقتضى القيام بهذا الواجب معرفة الناس والتعرف على مذاهبهم.

قوله: (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..): أسلوب القصر هنا أفاد الاختصاص، فليس أحد من الآلهة المزعومة يدَّعي ملك السماوات والأرض، وهكذا يأتي التذكير بهذه المقدمة؛ لتكون فاتحة خير للانقياد لله تعالى طوعًا واختيارًا.

قوله: (..إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ): تأكيد أن الله سبحانه يتبرأ من كفرهم إياه، وذلك بدلالة اختصاصه بملك السماوات والأرض، فهو غني عن عبادتهم له؛ حيث تخالط عبادتهم لله كثير من

الأمور الشركية، قال ابن عاشور: (وضمير "هُوَ" ضمير فصل مفاده اختصاص الغني والحمد بالله تعالى، أي ليس لآلهتهم المزعومة غني ولا تستحق حمدًا)[1].

وقال الخطابي: الحميد: هو المحمودُ الذي اسْتحقَّ الحمد بفعاله، وهو الذي يُحمدُ في السراء والضَّراء، وفي الشدة والرخاء؛ لأنه حكيمٌ لا يجري في أفعاله الغلط، ولا يعترضُهُ الخطأ، فهو محمودٌ على كل حال)[2].

قوله: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ): أراد الله تعالى أن يبيّن بهذا سَعة علمه الذي لا ينضب، وكلماته التي لا تنفَد بهذا المثال، بما يؤكد إحاطته لأفعال عباده تقديرًا، فقد كتب في كتاب عنده كل أفعالهم، وأحصاهم قبل أن يفعلوها؛ كما في قوله: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (الأنعام: 59)، ثم بعد أن فعلوها أحصاها عليهم كما في قوله: {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف: 49].

وهكذا يعلمنا القرآن الكريم طريقةَ تعليم العقيدة الإسلامية، وتلقينها للأجيال القادمة بضرب الأمثلة على ذلك، أي بتلك البساطة بلا تعقيد أو فلسفة ولا امتحان، فالمثال المذكور يحض على التأمل والتخيل، فالله تعالى يريد من المكلفين أن يتخيَّلوا لو أن أشجار الدنيا كلها قطعت على هيئة أقلام، كم يكون عدد هذه الأقلام، وتخيَّل كذلك ماء البحر أضحى بسعته تلك مدادًا

---

1 ) التحرير والتنوير ج21 ص 121

2 ) الأسماء والصفات للبيهقي ج1 ص 160، أبوالقاسم الأصبهاني: الحجة في بيان المحجة ص 146

لأحبار هذه الأقلام، وأضعاف ذلك سبع مرات، كم عدد الكلمات التي يمكن أن تكتبها تلك الأقلام بهذا المداد من الأحبار، لا شك أن الرقم لا يمكن استيعابه، فالله سبحانه يريد أن يعلِّمنا بأن كلمات الله لا تنفَد، وكذلك أوامره الشرعية والكونية لا تنفد، فكيف بهؤلاء الذين يُقرون بربوبيته، وينكرون حقه في الألوهية، وينفون عنه حقَّه في الأمر والنهي، ولذلك قال ابن عثيمين: (والمراد بالكلمات هنا: الكلمات الكونية والشرعية)[1]، فإذا كانت كلماته لا تحصى، فكذلك أوامره الشرعية والكونية لا تحصى سبحانه.

قوله: (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ): تبسيط آخر لعقيدة البعث عند المسلمين، ببيان أن قدرة الله تعالى لفعل ذلك في الناس أجمعين يسيرة، وكأنها نفس واحدة، فعن قس بن ساعدة قال: (والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثُن كما تستيقظون، ولتحاسبُن بما تعملون، ولتُجزَون بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا، وإنها لجنة أبدًا، أو لنار أبدًا)[2].

وهكذا يتعلم المسلم أن الله تعالى لا يُعجزه شيء، وقد ضرب المثال بخلق الناس أنفسهم، وغيرهم من الكائنات، فجميعهم خلق الله في اعتقاد أهل الكفر أنفسهم، وعليه كان من اللازم كما أثبتوا لله الخلق أن يثبتوا له قدرته على البعث كذلك؛ أي: يبعثهم كما خلقهم أول مرة؛ قال

---

1 ) القول المفيد على كتاب التوحيد ج1 ص 253.

2 ) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (عبد الله بن قعود عضو..... عبد الرزاق عفيفي... نائب الرئيس... عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرئيس) مجلة البحوث الإسلامية ج55 ص 91.

تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (يس 78-79).

## المحور السادس: التربية على الإخلاص بطريق المشاهدة لنعم الله والتجربة بالابتلاءات:

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} [لقمان: 29 - 32].

أشارت آيات هذا المقطع إلى الكون الفسيح، فالتأمل فيه يقطع جدل المجادلين، كما قال الشاعر:

لله في الآفاق آياتٌ لعلَّ = أقلَّها هو ما إليه هداكَ

ولعل ما في النفس مِن آياته = عجبٌ عُجابٌ لو تَرى عيناكَ

والكون مشحونٌ بأسرارٍ إذا = حاولت تفسيرًا لها أَعيَاكَ

كما أشارت إلى تجربة عملية تكاد لا تخلو سيرة أي إنسان إلا وقد مرَّ بها؛ حيث يبتليه الله تعالى إما بالضر أو المرض، فيتنابه شعورٌ شديد بالضيق والخوف والفزع، وفي ذات الوقت يستشعر ضعفَ الأسباب مِن حوله حتى تكاد تنعدم، وهنا يفزَع إلى خالقه، ويتذكر فطرته السليمة أن الله

وحده قادرٌ على أن يُنجيه، ويظل تأثير هذا الموقف في قلبه، فيقتصد عن المعصية، لكنه لا يزال غير مُقبل على الطاعة بإخلاص، وهناك صنف آخر يسارع إلى الشرك بالله بعد هذه الحادثة، فما أغدرَه وما أكفرَه!

قوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ): الإشارة إلى تعاقُب الليل مع النهار والنهار مع الليل، وتسخير الشمس والقمر، وجريان الكواكب على نِسَبٍ رياضية ثابتة، كثير في القرآن، وهو كالجملة الاعتراضية؛ حيث لا يخلو حديث في القرآن من الإشارة إلى ذلك، وكأنها استراحة تربوية تأملية؛ ليتفكر الإنسان في عظيم قدرة الله، فيَنخرس لسانه عن التكذيب بقدرته على البعث، ويستيقن قلبُه بهذه الحقيقة، وتلك هي التربية بالصفاء والتفكر والتأمل، والكون الفسيح يتسع لذلك، ومن ثم كان حريًّا بالمربي أن يتنزَّه مع أولاده في الكون؛ ليتأمل معهم قدرة الله سبحانه.

فإذا قطع المربي هذا الشوط من التأمل، وقد رأت العين تعاقب الليل بعد النهار في ساعة معينة، وتعاقب النهار بعد الليل في الصباح، وقد أخذ النهار من الليل في الصيف، وأخذ الليل من النهار في الشتاء، ولم يتأخر موعد دخول الليل، ولا إقبال النهار عن تلك النسبة والمتوالية الحسابية التي تجري طول العام، وتأمل كذلك تسخير الشمس لتدفئة الكون، فلم ترتفع حرارتها لتَحرقه، ولم تقل حرارتها حتى تتجمَّد الكائنات، والقمر كسبب لحركتي المد والجزر ... والكون على هذا النظام المطرد حتى قيام الساعة، عندئذ يستشعر مراقبة الله له، ويعلم أن الله خبير بما يعمل.

قوله: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ): قال ابن عاشور ما معناه: (أي: إن ذلك الصنع البديع مسبَّب عن انفراد الله بالإلهية، وهو أيضًا دليل

على انفراد الله بالإلهية، للتلازم بين السبب والمسبب)[1]، أي: (إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق، أي: الموجود الحق، الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه)[2].

قوله: (وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ): والمعنى أن الله أحق بأن يُسأل فيُعطي، ويُدعى فيستجيب، وغيره لا يسمع، وإذا سمع لا يستجيب، بذلك يتحقق الإخلاص لله في الطلب والدعاء، ولا يلتفت العبد بعد ذلك لشيء من الأسباب، فجميع الأسباب باطلة – حتى وإن كانت مشروعة – ما لم يأذَن الله لها كونًا أن تُرتِّب نتائجُها، ناهيك عما إذا كانت هذه الأسباب غير واصلة لله كعبادة الأصنام، أو كانت غير مشروعة مثل التماس الشفاعة ممن لم يأذَن له الله، وقد ذكر أبو السعود أن هذه العبارة جاءت بعد التَّصريح بأنَّ دلالةَ اختصاصِ الله بالإلهيةِ به تعالى يستتبع لزومًا بُطلان إلهيةِ ما عداه، وذلك بطريق الاستقلال أيضًا، وليس بطريق الاستتباع فقط[3]، فالعبرة أن يأذن الله مسبب الأسباب للوسائل والأسباب بأن تنتج فاعليتها، فإن لم يفعل بطَل تأثيرها، فما هي في حق الله إلا صفرًا سبحانه.

ولذلك كان لابد من إخلاص الدعاء له، وإحسان الصلة به، وعبادته بالتماس الأسباب المشروعة، لكن القلب يعتمد على الله مسبب الأسباب، ولا يغتر بعبادة أو دعاء، فلا أحد يدخل

---

1 ) التحرير والتنوير ج21 ص 127.

2 ) تفسير ابن كثير ج6 ص 350.

3 ) تفسير أبي السعود ج5 ص 302.

الجنة بعمله، ولا يعتمد على الأسباب ذاته، ولا يفتقر إليها، فهي جميعها باطلة ما لم يقبلها الله سبحانه؛ أي التماس رحمة الله بالدعاء، فيدخل الجنة بتلك الرحمة لا بالدعاء ذاته.

قوله: (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ): تكررت هذه الأية بتمامها في سورة الحج بمناسبة إثبات العلو المطلق لله، فهو أسلوب اختصاص، فهو وحده سبحانه العلي الكبير، وهذا يستلزم فَهْمَ أن علو المؤمنين نسبي مقارنة بسفول الكافرين، ويستتبع ذلك فَهْم سنة الله في أن يزهوَ الباطل أحيانًا، وينتصر الحق أحيانًا أخرى، ولذلك يجعل أيام يزهو فيها الباطل وأخرى يتنصر فيها الحق؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَلَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ)[1].

وكما أن العلو المطلق لله وحده، فإن الكبرياء له وحده، ولا يقارن كبرياءه بكبرياء غيره؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ)[2]، فإذا كان الله عليًّا في ملكه، عظيمًا في شأنه، فإنه بدون ملكه كبير، له الكبرياء والعظمة، فكل شيء هالك إلا وجهه، فله العلو والكبرياء المطلقان محرَّران من الزمان والمكان والمخلوقات، فهو الذي يقول يوم القيامة بعدما يهلك كل شيء ويَفنى ثم يعيده: (يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) (غافر: 16).

قوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ): هذا تنويهٌ إلى إحاطة الله عباده بالنعم في كل مكان حتى في البحر، فإنه يُحيط بهم ويرعاهم في الفلك، وهم في سفرهم يرون الآيات الدالة على قدرته، فيكون حالهم بين الصبر

---

1 ) رواه البخاري ج20 ص 157 رقم 6020.

2 ) رواه ابن ماجه ج12 ص 211 رقم4164، وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج2 ص 405 رقم 3365.

والشكر؛ قال تعالى: {رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [الإسراء: 66].

قوله: (..إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ): قال الألوسي: (هذا تنبيهٌ على أن المؤمن يجب ألا يخلوَ زمانه عن أحد هذين الأمرين، فإن جرى الوقت على ما يلائم طبعه ويوافق إرادته، كان مشغولًا بالشكر، وإن جرى ما لا يلائم طبعه كان مشغولًا بالصبر)[1]، فعن المغيرة بن عامر قال: (الشكر نصف الإيمان، والصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله)[2].

والحياة في عرض البحر لا تخلو من المغامرة، وهو ما يحمل المغامر على أن يصير حاله بين أحد حالين، فراكب البحر إما أن يكون حاله في سلام ورزق فيشكُر، وإما أن يكون الموج شديدًا والأرزاق قليلة فيصبِر.

والإتيان بصيغة المبالغة في (صبَّار) (شكور)، يفيد بأن المطلوب الشرعي ليس مجرد الصبر أو الشكر، بل ملازمة هذين الحالين في كل وقت.

قوله: (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ): بيان لحاله والأمواج عاتية، وليس سبيل غير الدعاء، فيدعون الله مخلصين، وهنا يتحقق الإخلاص في التوحيد، ويترك العبد ما سوى الله تعالى ليقصده بالدعاء، وتلك هي بركة التعليم بالمنهج التجريبي؛ أي بالمواقف التي تؤثر فيه، فالمعايشة والمحاكاة للواقع

---

1 ) تفسير الرازي ج9 ص 211.

2 ) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر ج1 ص 24 رقم 58.

تضيف للإنسان تجربة يتعلم منها، ويستفيد ما يفوق ما يتعلمه من خلال التنظير والنصح والإرشاد.

يقول مطرف بن عبد الله: (لأن أُعافى وأشكُر أحبُّ إليَّ مِن أن أُبتلى فأصبِر)[1]، هذا هو حال أهل الشكر، لكن إذا كان الإنسان في غفلة عن الشكر، فليس ثمة بديل لتذكيره بالله غير أن يُبتلى فيَصبر، ولذلك ضرب الله هذا المثال؛ حيث يغشاهم موج، فيضطرون لدعاء الله، وهنا نتذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (اعرِف الله في الرخاء يَعرِفك في الشدة).

وخير مكان أو مدرسة يتربى فيها المسلم بمنهج عملي تجريبي، هو الكون الفسيح، فالابتلاءات تُلهم الإنسان، وتُمحص ذهنه ليُدرك إلى مَن يلجأ ويطلب العون، فالوقت عند الابتلاء ضيق، ولا يسعفه أن يلجأَ لغير الله ليستجير به، فعندئذ يدرك الإنسان أن الابتلاءات نعمة عظيمة، متى ذكَّره الابتلاء بالله، فالحياة في ظل الابتلاءات المتكررة تعطي للإنسان خبرة من خلالها يستطيع أن يغيِّر من شخصيته لحال أفضلَ، وهو ما يسميه علماء التربية بالتربية الميدانية، ففي ذلك علاج لمن آمن بالله ربًّا، ولم يؤمن به إلهًا، أو لم يُخلص له قصده ونيته.

قوله: (..دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ): هكذا يتعلم العبد الإخلاص لله في الشدائد، وقد غفل عن ذلك في الرخاء؛ حيث يكون مضطرًّا في عرض البحر وهو يعلم أنه لا أحد غير الله يُنجيه،

1 ) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر ج1 ص 24 رقم65.

بأن يكفَّ عنه الأمواج العاتية والأمطار الكثيفة، فيهدأ البحر الذي هو خلق الله، وليس شيء غير ذلك يُنجيه، فالذي خلق البحر هو الله، والذي يأمره هو الله، ولا يوجد قوة في الكون تقدِر على أن تُهدئ البحر غير الله؛ كما في قوله: (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ) [الإسراء:67].

إن الحق الذي لا يجوز المحيد عنه هو الذي دل عليه القرآن، من إقرار المشركين بربوبية الله، وكذا بألوهيته، لكنهم أشركوا مبررين صنيعهم بتأويلات وشبهات باطلة، فإذا كانوا في الشدة والكرب، أخلصوا دينهم لله، وتركوا طلب الدعاء من غير الله، وتركوا الاستغاثة بغير الله، أخلصوا ذلك كله لله، ونسوا غيره من الملائكة والأنبياء والصالحين)[1].

قوله: (..فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ..)؛ أي: تأثر قلبه شيئًا ما بتلك الحادثة، فتعرَّف على ربه حين دعاه في حال الاضطرار، ولا يزال تأثير هذه الحادثة على قلبه، فانتهى عن كثير من صور الشرك بالله، وإن كان لا يزال بعضٌ منها عالقًا في قلبه، وذلك كحال بعض حديثي العهد بالإسلام، عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ

1 ) هذه مفاهيمنا ج1 ص 91 كتبه صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ رد على كتاب"مفاهيم يجب أن تصحح" لمحمد بن علوي المالكي.

كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم سُبْحَانَ اللَّهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)[1].

فالمقتصد: اسم فاعل من القصد؛ أي التوسط بين طرفين، قال ابن عاشور: (وقد يطلق المقصد على الذي يتوسط حاله بين الصلاح وضده، والمراد الاقتصاد في الكفر لوقوع تذييله بقوله: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)؛ كما قال تعالى: (مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) [المائدة: 66].

قوله: (..وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ): استنكار على مَن يعود للكفر والشرك بعد النجاة من الغرق؛ كما في قوله: (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) [العنكبوت 65]؛ أي: إنه لا يمكن أن ينكر هذه الآية العملية والتجربة المشاهدة إلا كلُّ ختَّار كفور، فلفظ "ختار" صيغة مبالغة من ختر؛ أي غدَر[2]، وصفه الله بالختار – أي الغدَّار – لجحوده نعمه وكفره بآياته، رغم تجربته العملية، وهو في عرض البحر، وقد لجأ إلى الله في الشدة، فليس بعد ذلك دليلٌ على وحدانيته وألوهيته سبحانه، ثم هو يكفر في الرخاء، فذلك أشبه بالغدر أن يدعو الله بإخلاص في الشدة، ولا يعرفه في الرخاء، ويدعو غيره.

---

1 ) رواه الترمذي ج8 ص 93 رقم 2106، وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 180 ظلال الجنة 31/1.

2 ) انظر أساس البلاغة للزمخشري ج1 ص 106، والصحاح في اللغة للجوهري ج1 ص 162، ولسان العرب لابن منظور ج4 ص 229.

# خاتمة سورة لقمان:

**تفريد المسؤولية بين الوالد وولده يعظِّم الشعور بالتقوى وتفويض الأمور لتدبير لله:**

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 33، 34].

تصدير الخاتمة بتوجيه النداء للناس جميعًا، وتوصيتهم بتقوى الله، وخشية اليوم الآخر، لهو خير موعظة تختتم بها السورة، فالحديث عن التقوى والتذكير بها هو خير بداية كما في سورة الحج وسورة النساء، وخير خاتمة كما في هذه السورة.

قوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا..): نفت الآية الشفاعة بكل صورها، حتى من أقرب الناس للمرء ولده ووالده، فلا يشفع للمرء عندئذ غير عمله الصالح؛ قال الإمام البقاعي: (ولَما كان ما بين الوالد والولد من الحنو والشفقة والعطف والرحمة الداعية إلى المحاماة والنصرة والفداء بالنفس والمال – أعظم مما بين غيرهما، فإذا انتفى إغناء أحدهما عن الآخر، انتفى غيرهما بطريق الأولى..)[1].

قال ابن القيم: (وهذا كلُّه تكذيب لأطماع المشركين الباطلة، وأن من تعلقوا به من دون الله من قرابة أو صهرٍ أو نكاحٍ أو صحبةٍ، لن ينفعهم يوم القيامة أو يجيرهم من عذاب الله، أو هو

1 ) نظم الدرر ج6 ص 366.

يشفع لهم عند الله، وهذا أصل ضلالة بني آدم وشركهم، وهو الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الذي بعث الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه بإبطاله ومحاربة أهله ومعاداتهم)[1].

لكن من جهة أخرى، فإن الوالد ينفع ولده، والولد ينفع والده يوم القيامة إذا كان ذلك سببه العمل الصالح؛ أي: من حيث إن كلاهما سبب لإرشاده للحق وإعانته على الطاعة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ)[2].

ولَما كان الابن هو كسب أبيه إذا ما وضع النية في إنجابه أن يُنجبه لله؛ كما قالت امرأة عمران: {رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي} [آل عمران: 35]، فإذا صحح النية لله تعالى كان له أجر في كل أجره يكسبه ولده، باعتبار أن ولده من كسبه، ولذلك قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ)[3]؛ قال ابن تيمية: (فَلَمَّا كَانَ هُوَ السَّاعِي فِي وُجُودِ الْوَلَدِ كَانَ عَمَلُهُ مِنْ كَسْبِهِ، بِخِلَافِ الْأَخِ، وَالْعَمِّ وَالْأَبِ، وَنَحْوِهِمْ. فَإِنَّهُ يَنْتَفِعُ أَيْضًا بِدُعَائِهِمْ، بَلْ بِدُعَاءِ الْأَجَانِبِ، لَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِ)[4]، ويؤكد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الرجُلَ لَتُرْفَعُ درجتُهُ في الجنةِ فيقولُ: أنَّى لِي هذا؟ فيُقالُ: بِاستغفارِ ولَدِكَ لَكَ»[5].

---

1 ) التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 202.

2 ) رواه مسلم ج5 ص 198 رقم 1691.

3 ) رواه ابن ماجه ج6 ص354 رقم 2128، وصححه الألباني: صحيح ابن ماجه ج2 ص 5 رقم 1738.

4 ) الفتاوى الكبرى ج3 ص 31.

5 ) رواه ابن ماجه ج11 ص 51 رقم 3650، وصححه الألباني: صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 173.

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب، يقول لصاحبه: هل تعرفني، أنا الذي كنت أسهر ليلك وأُظمئ هواجرك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وأنا لك اليوم من وراء كل تاجر، فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، وَيُكْسَى وَالدَاهُ حُلَّتَين، لا تَقُومُ لَهُمْ الدُّنيا وما فيها، فَيَقُولان: يا رَبِّ! أَنَّى لَنَا هذا؟ فَيُقَالُ: بِتَعْلِيمِ وَلَدِكُما القُرآنَ»[1].

قوله: (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ): وعد الله القيامة، فلابد أن تأتي، ولابد لليوم من آخر، ولابد من حساب بعد العمل، وما الدنيا إلا دار ابتلاء وفتنة، والانتقال منها إلى الدار الآخرة أمرٌ مُحتم، فمن اغتر بدنياه غفل عن آخرته، ومن اهتم بآخرته أضرَّ بدنياه؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى)[2].

ولكن الشيطان يأبى أن ينفلت الإنسان منه، فيغرَّه بالدنيا، فإذا ما لم يغتر بها غرَّه بكرم ربه وعفوه، حتى يستصغر ذنوبه ويتناساها، فعن سعيد بن جُبَير قوله: (وَلا يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ الغَرُورُ)، قال: أن تعمل بالمعصية وتتمنى المغفرة[3]، قال أبو بكر الجزائري: (أي يغتنم الشيطان حلم الله عليكم وإمهاله لكم، فيُجسركم على المعاصي، ويُسوفكم في التوبة)[4]، وقد فسر العلماء (الغرور) بأنه (كلُّ

---

1 ) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج6 ص 51، وصححه الألباني / السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 328 رقم 2829.

2 ) رواه أحمد ج32 ص 472 رقم 19698.

3 ) تفسير الطبري ج20 ص 159.

4 ) أيسر التفاسير للجزائري ج3 ص 258.

ما يَغُرُّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، كما فسر بـ (الشيطان)[1]؛ إذ هو أخبث الغارين، وبالدنيا لما قيل: الدنيا تغر وتضُر وتمر، والغرر الخطر وهو من الغر)[2].

قوله: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ): ففي الحديث عن جبريل قال: (خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)[3]، وفي رواية ثُمَّ تَلَا صلى الله عليه وسلم: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 34][4].

تلك هي الغيبيات الخمس المذكورة حصرًا في الآية، وهي مفاتح الغيب المذكورة في قوله (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (الأنعام: 59)، وإليها أشار قول رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ)، {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 34][5].

---

1 ) قال ابن كثير: قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة؛ تفسيره ج6 ص 351.

2 ) أبو القاسم الحسين بن محمد المفردات في غريب القرآن ص 359 تحقيق: محمد سيد الكيلاني.

3 ) رواه البخاري ج14 ص 452 رقم 4404.

4 ) رواه مسلم ج1 ص 88 رقم 10.

5 ) رواه البخاري ج14 ص 158 رقم 4261.

قال الكرماني: (إنما اقتصر على خمس، وإن كان الغيب لا يتناهى؛ لأن العدد لا ينفي الزيادة، أو لأنهم كانوا يزعمون معرفتها، أو لأنها أمهات لغيرها)[1]، وكل ما تقدم جائز، قال ابن رجب: (وإنما ذُكرت هذه الخمس لحاجة الناس إلى معرفة اختصاص الله بعلمها)[2]، يعني أن المقصد من ذكر هذه الخمس دون غيرها، الكشف عن أنه لا أحد يعلمها غير الله، فلا يشاركه في العلم بها أحدٌ من خلقه، فيكف الناس عن التنجيم والاستعانة بالجن ظنًّا منهم أن عندهم شيء من العلم بها؛ لأن عليها مدار بحثهم وسؤالهم، فإذا علموا بأنها غيب عند الله، كفاهم السعي وراء البحث عنها، ففي الحديثِ: إبطالُ تخرُّصاتِ المنجِّمينَ والكَهَنةِ في تَعاطِيهِمْ عِلمَ الغيبِ، وأنَّ مَن ادَّعى عِلمَ شيءٍ ممَّا انفرَدَ الله سُبحانَه بعِلمِه، فقدْ كذَّبَ اللهَ تعالَى ورَسولَه صلى الله عليه وسلم والقُرآنَ العَظيمَ.

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الغيبيات الخمس المذكورة في الآية على غير الترتيب الوارد فيها، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ)[3].

---

1 ) محمد فضيل الشبيهي: الفجر الساطع على الصحيح الجامع ج5 ص 82.

2 ) فتح الباري لابن رجب ج6ص 342.

3 ) رواه البخاري ج14 ص 288 رقم 4328.

ثم في رواية أخرى عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (مِفْتَاحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي غَدٍ وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي الْأَرْحَامِ وَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ وَمَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ الْمَطَرُ)[1].

قال ابن رجب في الشرح: (اختص الله بعلم هذه الخمس التي هي مفاتح الغيب، التي قال فيها: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} [الأنعام: 59]، فهذه الخمس المذكورة في حديث ابن عمر الأخير، ليس فيها علم الساعة، بل فيها ذكر (متى يجيء المطر)، بدل الساعة[2]، وهذا يدل على أن علم الله الذي استأثر به دون خلقه، لم ينحصر في خمس، بل هو أكثر من ذلك، مثل علمه بعدد خلقه؛ كما قال: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ} [الأنعام: 59]، ومثل استئثاره بعلمه بذاته وصفاته وأسمائه، كما قال: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: 110]، وفي حديث ابن مسعود – في ذكر أسمائه – "أو استأثرت به في علم الغيب عندك"[3].

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم أُوتي كثير من العلم إلا هذه الخمس، قال ابن رجب: (فأما اطلاع الله سبحانه له على شيء من أفرادها، فإنه غير منفي أيضًا، وهو داخل في قوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} [الجن: 26، 27]، ولكن علم الساعة مما اختص الله به، ولم يطلع عليه غيره، كما تقدم في حديث سؤال

---

1 ) رواه البخاري ج4 ص 151 رقم 981.

2 ) بل ذكر ماذا تكسب غدًا، وما يكون في غد، وهما مترادفان بدلًا من ذكر الساعة.

3 ) فتح الباري لابن رجب ج6ص 342.

جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك جملة العلم بما في غد، وقد قالت جارية بحضرته صلى الله عليه وسلم: وفينا نبي يعلم ما في غد، فنهاها النبي صلى الله عليه وسلم عن قول ذلك)[1]، فعَنْ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ قَالَتْ دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم غَدَاةَ بُنِيَ عَلَيَّ فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي وَجُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لَا تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ)[2].

وتفصيل هذه الغيبيات الخمس كالتالي:

أولًا: (علم الساعة)، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ)، والمعني يحتمل إما ساعة الموت أو ساعة القيامة، فمن مات قامت قيامته، والذي ينبغي للعباد أن يشغلوا به أنفسهم بدلًا من السؤال عن الساعة – الإعدادُ لها، فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَيْنَمَا أَنَا وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم خَارِجَانِ مِنْ الْمَسْجِدِ فَلَقِيَنَا رَجُلٌ عِنْدَ سُدَّةِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مَا أَعْدَدْتَ لَهَا فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ ثُمَّ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَا صَدَقَةٍ وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ)[3].

---

1 ) فتح الباري لابن رجب ج6ص 342.

2 ) رواه البخاري ج12 ص 395 رقم 3700.

3 ) رواه البخاري ج22 ص 67 رقم 6620.

ثانيًا: (إنزال الغيث): ففي الحديث: (وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ)، والمقصود معنى مخصوص لإنزال المطر؛ أي: إنزاله بعد انقطاعه زمنًا، وقد هلك الناس والزرع، فينزل يغيث الناس بعد مجاعة أَلَمَّت بهم.

أما ما قيل في العلم بالأنواء، فهذا من قبيل الدراسة والمراقبة والملاحظة والتخمين، فهذا جائز، ولذلك قال ابن رجب: (والعلم بمجموعها مما اختص الله بعلمه، كذلك العلم القاطع بكل فرد من أفرادها، وأما الاطلاع على شيء يسير من أفرادها بطريق غير قاطع، بل يحتمل الخطأ والإصابة، فهو غير منفي؛ لأنه لا يدخل في العلم الذي اختص الله به، ونفاه عن غيره)[1]، يقصد بذلك علوم الأرصاد والطقس لمعرفة مواقع المطر.

1 ) فتح الباري لابن رجب ج6ص 342.

# كشف بالنوات والرياح الموسمية التى تهب على مصر

| تاريخ النوة | إسم النوة | المدة | إتجاة الريح | نوعها |
|---|---|---|---|---|
| ١ / ٢ | رأس السنة | ٤ | غربية | ممطرة |
| ١ / ١٩ | الغطاس | ٣ | غربية | ممطر |
| ١ / ٢١ | الفيضة الكبيرة | ٦ | جنوبية غربية | ممطر جدًا |
| ١ / ٢٨ | الكرم | ٧ | غربية | أمطار ثقيلة |
| ٢ / ١٨ | الشمس الصغيرة | ٣ | غربية | أمطار ثقيلة |
| ٣ / ٢ | السلوم | ٢ | جنوبية غربية | ممطرة |
| ٣ / ٩ | الحصون | ٧ | جنوبية غربية | غالبًا ممطرة |
| ٣ / ١٨ | الشمس الكبيرة | ٢ | شرقية | غالبًا ممطرة |
| ٣ / ٢٤ | العوة وبرد العجوزة | ٦ | شرقية | غالبًا ممطرة |
| ٤ / ٢٣ | الخماسين إلى شم النسيم | ٢ | شرقية | حار |
| ٦ / ١٨ | رياح النقطة | ٢ | شرقية | ساخنة |
| ٩ / ٣٠ | رياح الصليب | ٣ | غربية | ساخنة |
| ١٠ / ٢٠ | رياح الصليب | ٣ | غربية | غالبًا غير ممطرة |
| ١١ / ١٦ | المكنسة | ٤ | شمال غربي | ممطر جدًا |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| ١١ / ٢٢ | رست الحصون | ٤ | جنوب غربي | ممطر |
| ١٢ / ٤ | قاسم | ٥ | جنوب غربي | مصحوبة بعواصف |
| ١٢ / ٢٨ | عيد الميلاد | ٢ | غربية | شديدة الأمطار |

والتنبؤات الجوية ليست علمًا بالغيب، بل هي استنتاجات مظنونة من بعض المظاهر الكونية القريبة والبعيدة[1].

ثالثًا: (ما في الأرحام)؛ أي: (وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ)؛ كما في الحديث السالف ذكره، والمقصود الله وحده يعلم مستقبل ما في الأرحام؛ كما ورد عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا يَقُولُ يَا رَبِّ نُطْفَةٌ يَا رَبِّ عَلَقَةٌ يَا رَبِّ مُضْغَةٌ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ فَمَا الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ)[2].

(والكشف بالأشعة على ما في البطن لمعرفة نوع الجنين، ذلك شيء غير الإحاطة التامة بمعرفة ما تحمل كل أنثى من البشر والدواب والطيور على امتداد الزمان والمكان).

رابعًا: (ما يكون في غد)؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ)؛ أي: هل العبد غدًا في نعمة أم مصيبة، سليم أو مريض، جائع أم شبعان، سعيد أم شقي، مهموم أم مسرور، راض أم ساخط ... إلخ.

---

1 ) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ص 292.

2 ) رواه البخاري ج2 ص 28 رقم 307.

فعن عائشة تقول: (وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ – أي النبي صلى الله عليه وسلم – يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا)[1].

وفي رواية عن عائشة قالت: (ومن زعَم أنه يعلم ما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُون} [النمل: 65])[2].

خامسًا: (مكان الموت) كناية عن حال الميت قبل موته، هل يموت على طاعة الله أم على معصيته، هل يموت وهو يصلي في المسجد، أم وهو يجاهد في سبيل، أم في النادي مع قرناء السوء أو الصالحين، أم يموت في عمله أم في الملاهي أو في معصية ربه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ فِي الْقَبْرِ عَلَى مَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ عَلَى إِيمَانِهِ وَالْمُنَافِقُ عَلَى نِفَاقِهِ)[3]، وفي رواية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ)[4]، قال المناوي: (أي على الحالة التي مات عليها من خير وشرٍ، ومنه أخذ المؤلف أن الزامر يأتي يوم القيامة بمزماره والسكران بقدحه والمؤذن يؤذن)[5]، قال ابن علان: (وفيه تحريض للإنسان على حسن العمل،

---

1 ) رواه البخاري ج15 ص 98 رقم 4477.

2 ) رواه النسائي في سننه الكبرى ج6 ص 432 رقم 11408 وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة المجلدات 70/17 رقم3575

3 ) رواه أحمد ج23 ص 65 رقم 14722 وصححه الألباني:

4 ) رواه مسلم ج14 ص 44 رقم 5126

5 ) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 978

وملازمة السنن المحمدي في سائر الأحوال، والإخلاص تعالى في الأقوال والأعمال، ليموت على تلك الحالة الحميدة، فيُبعث كذلك)[1].

رُوي عن شهر بن حوشب قال: دخل ملك الموت على سليمان، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم إليه النظر، فلمَّا خرج قال الرجل: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إليَّ كأنه يريدني، قال: فما تريد؟ قال: أريد أن تحملني على الريح، فتُلقيني بالهند، فدعا بالريح، فحملته عليها فألقتْه بالهند، ثمَّ أتى ملك الموت سليمان عليه السلام، فقال: إنَّك كنت تُديم النظر إلى رجل من جلسائي، قال: كنتُ أعجبُ منه إني أُمرت أنْ أقبضَ روحه بالهند وهو عندك)[2].

قوله: (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ): هذه الجولات بأساليبها ومؤثراتها ودلائلها وآياتها، نموذجٌ من أسلوب القرآن الكريم في معالجة القلوب، هذا الأسلوب المختار من خالق القلوب العليم بمداخلها، الخبير بما يصلح لها وما تصلح به من الأساليب.

---

1 ) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج2 ص9

2 ) الكشف والبيان ج7 ص 329؛ ورواه أحمد في كتاب الزهد، حدثنا عبد الله بن نمير به سندًا ومتنًا.

# فهرس السورة

تمهيد: ..... 2
فاتحة سورة لقمان..... 5
(التربية علىٰ آيات الله الحكيمة لما فيها هدىٰ ورحمة للمحسنين)..... 5
المحور الأول:..... 12
الأساس التمهيدي للتربية (تنقية مصادر التلقي) بتجنيب أئمة الضلال، وتجنب
مضلات الفتن:..... 12
المحور الثاني: عبادة التفكر هي الأساس التربوي لمعرفة الله وتحدي
المستكبرين الظالمين:..... 26
المحور الثالث: وصايا لقمان الحكيم منهج التربوي لكل ابن:..... 34
خَطَرَاتُ الْعَاقِلِ..... 38
المحور الرابع: التربية علىٰ مفهوم الاستخلاف والاستسلام لله والاستمساك
بالعروة الوثقىٰ، والتخلي عن الجدال بالباطل والاتباع الأعمىٰ:..... 59
(إسباغ الله نعمه) بين المجادلين فيها بغير علم والمسلِّمين بها بإحسان:..... 59
المحور الخامس: التدرج التربوي من الكفر حتىٰ الإيمان بالبعث:..... 76
المحور السادس: التربية علىٰ الإخلاص بطريق المشاهدة لنعم الله والتجربة
بالابتلاءات:..... 84
خاتمة سورة لقمان:..... 92
كشف بالنوات والرياح الموسمية التىٰ تهب علىٰ مصر ..... 100
فهرس السورة..... 104